العرب.. والقرن الحادي والعشرون

بقلم:
عبد الحكيم الذنون

في مطلع العقد الأول من نهاية القرن العشرين بدأت عمليا مرحلة نكسة النظام العالمي بقطبيه مهما كانت اولوية السبق في هذا الانهيار، فان المؤشرات تؤكد جملة تحولات هائلة تطرأ على العالم بدءاً من سقوط الاتحاد السوفيتي وانتهاء الحرب الباردة التي ألغيت آخر مظاهرها قبل أيام على أثر التوقيع على انهاء حالة الحرب بشتى انواعها بين حلفي وارسو وشمال الاطلسي، الى قيام نظام ذو قطب واحد تتزعمه الولايات المتحدة الامريكية، يهدف الى احياء النمط القديم ـ الجديد ـ المتجدد في فرض الهيمنة بشتى انواعها علي الانسانية.. انها الهيمنة الكونية كمشروع صهيوني بحت، وانعكاساً لمسألة فرض فلسفة الغرب المتهود لإلغاء ثقافة الآخرين عبر المحو أول المسخ.

لقد كانت أوربا مهداً للحضارة الغربية التي اتخذت الصليب ستاراً وأداة، لكن هناك ثمة مسائل تكمن في هذه الحضارة كونها تكرس مفهوم الوعي بالذات بشكل مطلق بحيث يتم قهر الآخر وفرض عليه تبعية مطلقة انسجاما مع مسألة تحقيق تلك الذات.

ولأجل تحقيق ذلك لا بد من الاستناد الى الفكرة الصهيونية التي تكرس مفهوم الإبادة الجماعية ليس على صعيد القتل والتدمير بفعل الفعاليات العسكرية فحسب، بل من خلال شتى الوسائل والقنوات التي تتم بواسطتها الهيمنة على العالم، وتحقيق المشاريع المرسومة في نهج التوجه الامبريالي والصهيوني لتهويد العالم وفرض الفكرة التوراتية تعاليم التلمود.

وفي التاريخ القديم عندما قام أحبار يهودا بتدوين التوراة ف ٥٨٦ق.م

في مرحلة «السبي البابلي»، كان الدافع الأساسي لكتبة التوراة يكمن في ترسيخ التعالي والعداء والإبادة الجماعية، وتبرير المذابح الجماعية، ومثال على ذلك ان.. سفر «يوشع» في التوراة غالباً ما استندت عليه الحاخامية العسكرية الاسرائيلية في الدعوة الى حرب الابادة المقدسة لسكان البلاد المغلوبة بتمرير رقاب الجميع على حد السيف، وقتلهم جميعا الرجال منهم والنساء والاطفال والشيوخ.

ويقص سفر الاعداد في التوراة مآثر بني اسرائيل المنتصرين على أهل مدين والذين قتلوا جميعاً ـ جميع الرجال ـ كما أمر الرب موسى، وأسروا النساء، واحرقوا كافة المدن، وحين عودتهم الي موسى «غضب موسى منهم قائلاً: ماذا؟ لقد أبقيتم جميع النساء على قيد الحياة؟، حسناً هيا اقتلوا الآن كافة الصبيان، وكل النساء اللواتي جمعهن بالرجال حضن الزوجية، أما الفتيات فاستبقوهن لأنفسكم».

ان هذه الروايات هي من صنع كهنة واحبار اليهود الذين ارادوا الافصاح عن ايمانهم برب لا يقهر رغم هزيمة شعبه، بينما كان الاشوريون يرون في انتصار نينوى، انتصاراً لإلههم «آشور» على «يهوه» المهزوم، لذلك شدد أحبار اليهود في الشتات على أثر مرحلة الحملة الحربية التي شنها نبوخذ نصر الثاني ملك بابل، على القول بأن السبب في هزيمتهم لا يعود الى ضعف الههم «يهوه»، بل الى معاقبة يهوه لهذا الشعب الخائن له.

ان تكاثر حكايات المذابح الجماعية والدعوة الي الابادات «المقدسة» يشكل انتقادا للطريقة التي كان الملوك يقودون بواسطتها الحروب ويستفيدون منها، ففي الحرب المقدسة لا يجوز جني الفوائد من الانتصار، وهذا الاعتقاد والتطبيق مألوفين في ذلك العهد، واللعنة التي تستتبع استئصال المغلوبين وقطع ماشيتهم ايضاً، هي الحنث باليمين المتمثل بالتخلي عن كل غنيمة تتوفر بعد انتصار «رب اسرائيل»، فلا يباع المهزومون كعبيد، ولا يتم الاستيلاء على ماشيتهم، بل يدمر كل شيء، وهذه هي الإبادة المقدسة.

ومن التلفيقات للاساطير التاريخية، تبرير احتلال أريحا وما نسج حوله من الصاقات بعدما أثبتت التنقيبات الاركولوجية ان اريحا دمرت في القرن الرابع عشر ق.م، اي انها كات جرداء في عهد يوشع، ومع ذلك تستخدم هذه الترميمات التاريخية في المدارس اليهودية لتنمية بذور الهيمنة والعداء والإبادة نزولاً عند رغبة التوراة، وانسجاماً مع مبدأ «الإبادة المقدسة».

هذا مثال من التاريخ القديم، وما أكثر أمثلة الإبادة في الوقت الحاضر التي أخذت عدة أشكال واطوار لتدمير الانسانية، وامتهان كرامة الانسان، وتحويل البشر الى بشر زائدين عن اللزوم، بحيث يدب اليأس في النفوس ويتخلل كامل حضارتنا الراهنة عندما تقول الدعايات بأن الاشتراكية قد انتهت، وان النظام القائم على العدل واحترام وتأكيد حقوق الانسانية لإمكانية لوجوده فقط بالشعارات والمظاهر الايهامية وصولاً الى مسألة مفادها تدمير الشعور بذاتية الانسان وحقه في الحياة الحرة الكريمة، وهذا هو محور الصراع الايديولوجي في المرحلة الراهنة.

ان انهيار الانظمة الاشتراكية الحليفة للامة العربية وقضاياها العادلة هو الذي ادى الى تنامي الشعور بالاحباط حول امكانية قوة تكون بمثابة الرد على الفعل الاميريكي والصهيوني، والاسباب كثيرة منها السكوت وعدم قيام معارضة لهذا النظام العالمي المتسلط نتيجة للقنوط السائد، وعدم ظهور استراتيجية ومبادرة جادة للاقتحام والغاء الظواهر العدمية والفوضوية المستشرية في كافة ارجاء المعمورة مث العلاقات الانسانية التي يجري تحطيمها، وازدياد نسبة الجرائم ومنها تجارة المخدرات، وتقويض

الهوية القومية لسكان العالم، وبالأخص «العالم الثالث» الذي ينتمي اليه الوطن العربي اعتماداً على المعيارين السياسي والتاريخي.

ومن هنا تتأكد الإبادة والعدمية الفعالة كما يقول «نيتشه» حين يتولد الشعور بأن البشر كم مهمل ولا حاجة اليهم بحيث يدمرون بعضهم بعضاً من خلال حروب وحالات شتى تفتعل من الخارج بدلاً من تضامنهم وتكافلهم لدرء الاخطار المحدقة بهم.

ان هذه الآلية القائمة على اخضاع الاخرين وارغامهم الاقوياء ان يكونوا جلاديهم تجسدها الرأسمالية الجديدة.. المتجددة حين تهيمن على البشر وتبقيهم في حالة التخلف وتنكر قيام بدائل من شأنها ارساء دعائم مجتمع جديد قائم على الحرية والعدل والغاء الحالات السلبية وتحقيق الوحدة القومية، بل تحول كل شكل من أشكال الاستقلالية والحياة الحرة ذات الكرامة الى مبدأ مجرد من أي فحوى.

ونحن على مشارف القرن الحادي والعشرين وانقضاء عقود القرن العشرين نطرح عدة تساؤلات ملحة حول استفحال أمر النظام العالمي، وهل المسألة هي انتهاء العالم، حيث توحي ملامح التسعينات بازدياد عربدة أمريكا تحت خدر وهمها بانها حققت انتصارا استراتيجيا حاسما يكرس هيمنتها على الصعيد العالمي عبر ما جرى في اوربا الشرقية، لكن هذا الوهم اصطدم سريعاً بتفاقم أزمات المجتمع الامريكي الداخلية من جهة، واحتدام التنافس الاقتصادي مع أوربا الموحدة متنامية القدرة، ومع اليابان التي ينتظر ان تشهد تسارعاً واسع النطاق في فعاليات وتغييرات مجتمعية وسياسية لتؤلف اطارا ذاتيا يؤكد تراثها واستقلاليتها بما يرد على الغزو الثقافي الامريكي الهادف الى التغلغل في نسيج مجتمعها وثقافتها.

ولا بد من الاشارة في هذاالمجال الى الدور البارز الذي سوف يكون للصين في عالم الغد في ضوء ما يتمخض عن تفاعلات المشاكل الاجتماعية والاقتصادية التي تعيشها، والتي سيؤدي تفاقمها وأسلوب معالجتها الى تفاقم النزعة العسكرية كحل سريع وحاسم لتشابك الازمات الداخلية مع الحالة التنافسية التي تمثلها اليابان، علاوة على وضع الهند ذات المشاكل المعقدة ودورها المتنامي هي الاخرى.

وعلى صعيد الوطن العربي في بدايات القرن الحادي والعشرين، فإنها مسألة غاية في الحسبان لكي تكتمل المعادلة، حيث أن مسألة استشراف التاريخ لبناء مجتمع الدولة القومية التي تلغي حالة التجزئة والتلخف وضياع فلسطين، وتحقق قيمة التكامل في كافة المجالات من الامور الملحة والاساسية، لا سيما في الجانب الاقتصادي حيث يتمتع الوطن العربي بتعدد وتنوع الموارد الطبيعية، وتوافر سوق مناسبة ومساعدة لعملية التكامل المرتكزة على الامتداد الجغرافي الكبير للوطن العربي، واهمية موقعه الجيوسياسي، والتعداد الكبير للسكان الذي سيصل في بدايات القرن الحادي والعشرين الى ٣٠٠مليون نسمة، وهذه كلها تؤدي الى تكامل اقتصادي وتكامل عربي بأبعاده المختلفة باعتباره عنصر مركزي من عناصر المشروع الحضاري القومي.

وفي الوقت الذي يقترب فيه العالم بخطى حثيثة للخروج من القرن العشرين، فإن الأمة العربية مطالبة أكثر من أي وقت مضى بأن تؤكد بالقوة التي ترفع الى مستوى الفعل لا الانفعال مسألة الوجود والبقاء وتأكيد الهوية القومية، والارتكاز على أرضية صلبة قوامها التعاون والتكامل والوحدة من خلال وحدة الوعي والارادة والفعل، لتحقيق التنمية القومية الشاملة وبناء معالم المجتمع المنشود.

* * *

القصيدة وفنية التناول

بقلم:
محمد غازي التدمري

الشعر: نبع من الشعور الداخلي الذي تُثيره وتحرّضه مجموعة من المؤثرات الخارجية، بمشاهدها المختلفة، وأبعادها التي تتنامى وتتطور، بالقرب من عين ووعي الشاعر، مما يساهم في تشكل عملية تفاعل واستقطاب، تستأثر بالدلالات والمرموزات التي يفرزها ذلك التفاعل الناجم عن تصادمية الخارج الفاعل، مع الداخل المنفعل، والمتسجيب تلقائياً لتلك الدلالات المحورية، التي سرعان ما يحوّلها العقل والفعل والانفعال، الى نص ابداعي يملك خصوصية فنية ما، تكون قادرة على أن تؤطر أبعادها، وتنتصب شاهداً على تطور القصيدة من جهة، وعلى مدى تفاعل الشاعر مع تلك المؤثرات، وما تفرزه من دلالات ومرموزات، تتأصل مفهوماً عاماً يستلهم الشاعر مواده من مختلف المنابع الإنسانية، التي تشاركه أبعاد تجربته الحياتية عامة من جهة أخرى. والقصيدة من هذا المنطلق حالة خاصة من الشعور الملتصق بكل ما يمت للحياة بصلة ما، وبكل ما يتوالد على مساحتها من أسباب ومسببات يسعى الشاعر جاهداً لتصويرها، ونقلها الى مساحة الفن الشعري، حالة ابداعية عامة، تغطّي مساحات الواقع المعيش، الذي يشكل مادة الفن الحقيقي، لشاعر يعرف كيف ينطق الوجود، ويستلهم أبعاده بمنحنياته وجزئياته. مثل هذا الفعل في بنائية القصيدة المتطورة القادرة على التمثّل والتمثيل لا تبرز قيمتها الإبداعية، إلاّ من خلال شغل فني تقني لا يعتمد على القوالب الجاهزة، والألفاظ المرمية على أطراف الألسنة، وإنما تأتي بفعلٍ حادٍ

للقصيدة التي يجب أن تقتني شكلاً فنياً متميزاً وليس صنعة شعرية تقوم على لعبة اللغة، والصور المشهدية البصرية والسمعية الخارجية، لذلك لا بدّ للوحي والحذق والإيحاء، والخلق والإبداع من أن يلعب دوراً كبيراً في تأسيس التجربة، وتكوينها، وتقديمها للمتلقي، وقد ارتبطت أجزاؤها، وتلاحمت أبعادها بمختلف القيم الشعورية والإنسانية المستمدة أصولها من منابع الصور الحياتية التي تشكل القاسم المشترك الأعظم، بين الشعر والشاعر والمتلقي.

من هذه المعايير الفنية والتقنية التناولية، تتوالد الصور الشعرية الحقيقية القادرة على تشكيل هيكلية قصيدة ناجحة قادرة على ربط الإنسان بالحياة، من خلال وعي مطلق لأبعاد الحياة، وقدرات القصيدة الناجحة القادرة على الاستيعاب الكامل لهذه الأساسيات وبالتالي تحويلها الى تجربة فنية قادرة على تجاوز العصر ومعاصريه

لأن أي شكل فني لأية قصيدة في زمن كَثُر الشعراء فيه، واختلفت المعايير النقدية للقصيدة الحديثة، وأبعاد التحديث، لا يمكن أن يُكتب لها الحياة إلاّ اذا كانت شيئاً مختلفاً في السياق.. واللغة.. والتناول.. والأداء والتوصيل، من خلال تذوّق إبداعي.. جمالي، يميل الى ربط الفعل الشعوري بالابداع الحقيقي لمنظور القصيدة الكاملة، وإلاّ اضطُر الشاعر الى الهروب من الواقع، الى خيالات وهمية وتخيّلات سرابية، تنمو على أطراف أحلام ضيِّقة الأبعاد والمفهوم والاتجاه، تخرج بالقصيدة من اطار التناول الابداعي، الى إشكالات التظاهر والتصنّع فتفقد القصيدة صلاتها بالواقع المُتناول، وتصبح مجرد صنعة لا روح فيها ولا حياة، وبذلك تخسر مصداقيتها الفنية التناولية، فينعكس ذلك على التجربة الابداعية قصوراً وتراجعاً للشعور الذي يُشكل مصدر مصداقية الدفقة الشعرية.

إن القصيدة المتطورة بتناول أبعادها، ورسم اتجاهها الفني والتقني هي التي تُغني الشعور وتمدّه بالحركة والحياة، كما لا تنأى عن محاور الصدق التناولي الذي يصوّر الوجود كما يتنامى ويتطور في مساحات الحياة، لا كما ترسمها مخيلة الشاعر في لحظات الغيبوبة المنفصلة عن دائرة الواقع المعيش.

هذا ما يدفع الصدق بالتناول والإيحاء والتعبير الى مساحات الشغل الفني والتقني لأبعاد القصيدة التي من المفروض أن تبقى عيناً راصدة لكل ما يعتمل جوانب الحياة من إيجابيات وسلبيات، وبالتالي لتكون أداة واعية وصادقة لرسم الخطوط المستقبلية بالشكل الذي يكفل للحياة التطور والتجدد، وللإنسان الفرح والتفاؤل والسعادة، وكل ذلك من خلال شغل فني منهجي، واضح الخطوط، والمعالم والنيّات لمختلف القضايا التي تتبناها القصيدة المتطورة، كعامل رسم ورصد ابداعي ينشّط الذاكرة، ويفتح دسّامات العقل ، وحركة الإحساس بالجمال الكلي للشعر والحياة، وبذلك يساهم الشاعر مساهمة صادقة في معالجة القضايا الحياتية العامة والخاصة، عن طريق القصيدة المتطورة القادرة على ربط الماضي بالحاضر، والقديم بالجديد، والتراث بالحداثة مَن خلال زيّ عربي معاصر وأصيل، والرائد في ذلك كلّه أمانة في

النقل والتناول، وصدق في التصوير، ووضوح مطلق في منحنيات التعبير، والتحليق في آفاق الشعور المطمئن الذي من الممكن أن يتحوّل في أية لحظة من لحظات التلقي، إلى حافز جادٍ قادرٍ على التغيير والتحويل.

إنّ المنظور الفني لأبعاد القصيدة المتطورة، هو الذي يشكله الغوْر في مجاهيل الحياة، والكشف عن أبعادها، بعيداً عن المواقف المتزمتة التي تفرضها المناسبة العارضة، التي لا تبدأ من موقف عام، ولا تنتهي الي موقف عام كما أنها لا تعتمد على هدف تناولي إبداعي، ولا تؤول الى غاية تعبيرية، فكلّ همها أن تثير في نفس المتلقي عاطفة! سرعان ما تزول بانتهاء قراءة النص أو تلقيه مباشرة من قبل الشاعر.

فالشعور السامي والمتنامي الذي يُقلقُ النصر الشعري، ويُصعّد قيمه الدلالية والتعبيرية، هو الذي يملك قدرة السيطرة على نفس وروح وعقل المتلقي أكبر فترة ممكنة، ولن يكون مصدر مثل هذا النص المتألق والمتميز عبر المد المنساب من أخدود الأصالة المتجسدة صوراً حيّة ملكت قوة العيش والاستمرار.

ولعل ما قاله (عنترة) حين تذكر حبيبته (عبلة) وهو في معمعة الحرب، أكبر دليل على ذلك الشعور الصادق والمتألق، وقد اختلط التناول الرائع لوجه الحبيبة مع صور السيف البتّار ببريقه تحت الشمس المحرقة، في حومة الوغى، فابتسم السيف مثل ابتسامة ثغر الحبيبة، مما دفعه لأن يشدّ على مقبضه بكل قواه، ويندفع ليثاً هصورا تسبقه ابتسامة الحبيبة، وتدفعه دفعاً لأن يقاوم. ويقاوم حتى يحقق لهذا الثغر المبتسم النصر المرتجى:

ولقد ذكرتك والرماح نواهلٌ
منيّ وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنّها
لمعت كبارق ثغرك المتبّسم

* * *

في مثل هذه الاجواء المشحونة بصدق التناول، وعفوية التعبير، ينمو النص الشعري، الذي يتكامل مع الشعور الإنساني النبيل في بنائية هيكلية سياقات القول الشعري، الذي يُشكل أبعاد ومنحنيات النص المتميز القادر على أن يعيش في حافظة الخلود، وذاكرة الأجيال المتعاقبة.

وفي مثل هذه الاطر المتكاملة الأبعاد، والواضحة الأهداف، تنمو تجربة القصيدة العربية المتطورة، وهي أكثر قدرة على التعبير عن مختلف الانفعالات الانسانية لحضارة الكون والإنسان وتبقى عظمة الشعر وروعته في نُبْل الشعور، وصدق الاحساس وحُسن التناول الإبداعي لأطراف الموضوع، ونجاح توظيف اللغة في سياقات القول الشعري، مما يُشكل هوية القصيدة التي تنتهي جزءاً من واقع نعيش بين أفيائه، ونتوالد من رحمه، لا صورة هامشية لانفعالات ظاهرية آنية تعيش وتنمو في مخيلة شاعرٍ لا يرى أبعد من أرنبة أنفه.

* * *

مشكلات الكتاب

بقلم:
أحمد شوحان

لو أردنا أن ندخل باب الكتاب وما يعانيه من مشاكل، لواجهتنا مشاكل كثيرة، تقف عثرات امام الكتاب منذ ان كان مخطوطاً الى ان اصبح بضاعة مزجاة في مستودعات الناشرين، بعضها ما يتعلق بالكاتب وبعضها بالناشر، والباقي بمشكلات الورق والطبع والتوزيع، وقبل ذلك بموافقة الطبع والتداول، ثم نصل الى القارىء، الذي يمثل حجر الاساس بالنسبة لتصريف الكتاب وتسويقه، فلولا القارىء ما كتب الكاتب ولا طُبع الكتاب.

تُرى؟.. هل يقرأ القارىء؟!!

هل يجد القارىء الكتاب الذي يريد؟!!

هل يتواجد الكتاب في كل مكان نجد فيه قارئاً؟!!

هل يتناسب سعر الكتاب مع دخل القارىء؟!!

ثم لماذا يحجم القارىء عن القراءة؟!!

اسئلة كثيرة تفرض نفسها ولا نكاد نجد لكثير منها حلولاً، لاننا نفقد مفتاح الحل. ولاننا نتجاهل المشكلة احياناً من اسّها؛ فنقول: طالما أنه لا يوجد قارىء فلماذا يكتب الكاتب ولماذا نطبع مالا يُقرأ؟!!

* غلاء الكتاب

كلنا يشعر بغلاء أي كتاب او مجلة او جريدة، يتساوى في هذا التذمّر، الطالب والاستاذ، والقارىء ونصف القارىء والمثقف والمتخصص، ولو أردنا أن نغوص في اعماق هذه المسألة التي تحدُّ من دخول الكتاب الى كل بيت لرأينا أن السبب الذي يقف عثرة امام هذه المشكلة هو «وجود الفراغ» و«دخل المواطن» و«الكتاب المناسب». فإذا كان دخل المواطن لا يكفي لسد حاجاته الضرورية، فهل من المعقول ان يقتصد الأكل من لقيماته التي لا تسدُّ رمقه ليشتري كتاباً او مجلة او جريدة؟!! فهو في حسرة دائمة، وهو في شوق زائد لاقتناء الكتاب، ومتابعة كل جديد، ولكن أنى له ان يحقق هذا الحلم البعيد!!

أمام القارىء المتلهف للكتاب، والذي يعاني من نهم للمطالعة وفقد الكتاب، يواجهنا الانسان الثري الذي لا يحب الكتاب ولا يكرهه، بل يتخذه زينة وتحفة من التحف التي يجب ان يزين بها غرفة الاستقبال، فهو يجعل في بيته مكتبة مزخرفة جميلة، يضعها في مكان بارز امام الضيوف للاستمتاع بالنظر اليها، وقد انتقى لها انواع الكتب المزخرفة، بالوان جميلة، واحجام مختلفة. كل ذلك ليبهر الزائر ويشغفه حباً لبيته، فما مثل هذا الانسان الا (كمثل الحمار يحمل أسفاراً)[1].

لقد قامت بعض الدول العربية بطبع سلاسل كثيرة بأسعار مغرية رمزية، وسمّوها (كتاب الشعب) او (الكتاب الشعبي) ومع ذلك لم يكن ذلك حلاً لمشكلة الكتاب، اذ نرى القارىء يتلهف لاقتناء الكتاب اكثر من تلك النسخ التي طبعت طبعات شعبية. بل نجد ان كثيراً من الدول العربية تقوم وزاراتها ومؤسساتها واتحاداتها الاعلامية والثقافية بطبع كتب كثيرة، تقع هذه المطبوعات في مآزق خطيرة، ومزالق وعرة، فهي إما أن تنفد من السوق المحلية سريعاً لتعطش القارىء لها، او لجشع تجار الكتب الذين ينتظرون صدور مثلها، فيختطفونها سريعاً للتلاعب بأسعارها، او ان لا تخرج هذه الكتب خارج حدود الدولة الطابعة، لانها تمثل فكرها السياسي، او نهجها الخاص في الرقابة وشروط الطبع القاسية، او الاعتبارات الاخرى. بينما نجد في دول عربية اخرى كتباً مكدسة في مستودعات صخمة لا أحد يقلّبها، فهي تنتظر مصيرها الاسود، طعمة للعُث، والرطوبة، وافواه الجرذان.

* **تحديد سعر الكتاب**

لا يقاس سعر الكتاب بقيمة الورق وأجرة الطبع، فالكتاب يمر بمراحل كثيرة بدءاً من تأليفه وانتهاء في وصوله ليد القارىء.

ولا يمكن تثبيت سعره مالم تراعى فيه الامور التالية:

١ ـ حق المؤلف: ويتراوح بين ٥٪ و١٢٪ من سعر الغلاف في البلدان العربية والاسلامية لقلّة عدد النسخ المطبوعة منه، وكلما ازدادت نسخ الطبعة وازدادا الاقبال على الكتاب المرغوب قلّت هذه النسبة، دفعاً لخطر التزوير والتصوير.

٢ ـ قيمة التنضيد الضوئي: أو صف الحروف في المطابع القديمة، يضاف اليها قيمة الافلام والبلاكات.

٣ ـ أجور فنية: تتعلق بالمراجعة، والتصحيح، والتدقيق، والخطوط الداخلية، وعمل الفهارس من قبل الناشر، وصورة الغلاف.

٤ ـ قيمة الورق: يضاف اليها قيمة الورق المقوى (الكرتون) للغلاف، يضاف الى هذه القيمة ٣٪ من كمية الورق اللازمة، لتذهب تلفاً في المطبعة والحمولات وعند الطي والتجليد، واهمال العمال اثناء العمل.

٥ ـ قيمة التجليد: وما يتعلق بالغلاف، سواء كان هذا الغلاف من الورق المقوّى (المسلفن) وعدد الوان الغلاف، او كان التجليد تجليداً فنياً (كرتون+ بيز مذهّب).

٦ ـ اجور النقل والدعاية في الصحف والمجلات والتلفزيون، وكل مصاريف الرزم والتغليف والتخزين والشحن، حتى وصول الكتاب الى المحافظات الاخرى، او خارج القطر لستقر اخيراً بيد القارىء (المستهلك).

٧ ـ نسبة الحسم: وهي النسبة التي يمنحها الناشر لصاحب المكتبة البائعة للمستهلك. وقد يتخذ الناشر له وكلاء في المحافظات الاخرى فيمنحهم حسماً قدره ٢٥٪ وقد يصل الى ٣٠٪.

* **كساد الكتاب**

إن اسباب كساد الكتاب كثيرة، منها ما هو من الكتاب، ومنها ما هو خارج عن الكتاب. وهناك امور كثيرة جعلت القارىء او نصف القارىء يبتعد عن الكتاب، لما لهذه الامور من تأثير

مباشر على الكتاب وانتشاره وتداوله، من تلك الاسباب ما يلي:

١ ـ التلفزيون وما يقدمه من مسلسلات كثيرة وبرامج ترفيهية، وكثرة القنوات التي يشاهدها المشاهد في بيته مستلقياً على فراشه.

٢ ـ دخل المواطن لا يتناسب في كثير من البلدان العربية وما يحتاجه من ضروريات الحياة فضلاً عن الكماليات، ولهذا يعتبر الكتاب ليس ضرورياً.

٣ ـ القلق النفسي الذي يعانيه المواطن العربي نتيجة التمزق والظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية غير المناسبة لإنسان هذا العصر.

٤ ـ فقدان الحرية في بعض الاقطار العربية، مما جعل الاسواق تفرق بكتب ثانوية او شعبية، في حين لا نجد الكتب الفكرية والسياسية القيّمة.

٥ ـ تسلل بعض الكتّاب والادباء الى الساحة الادبية، وطباعة كتب ودواوين، وتوزيعها على المدارس والدوائر والمنظمات والمؤسسات بطرق غير قانونية او شريفة، مما يجعل لدى المواطن ردّة نحو القراءة.

٦ ـ ظهور ظاهرة الأميّة الثقافية، وهو ماتراه من صدود خريجي المعاهد والجامعات عن الكتاب بعد تخرجهم وبحثهم عن عمل يبعدهم عن الثقافة.

٧ ـ هجرة بعض الادمغة الناضجة والعقول المفكرة الى اوربا وامريكا وغيرهما. لذلك نجد الكتاب كاسداً في الاسواق، ولا نجد له مكاناً في بيوت المتعلمين.

والكتاب كأية سلعة ضرورية يحتاجها الانسان، لا نكاد نجد له في السوق من ينتظر نزوله، وإن نزل الكتاب المطلوب فلن يُفقد من السوق سريعاً، لانه ينزل بلا دعاية في الصحف والمجلات، والتلفزيون، او تكتب دعايته في لوحات بارزة في مفترق طرق المدينة، وعلى يمين الطريق للمسافرين خارج المدن.

ولا نكاد نجد القارىء المتلهف لاقتناء كتاب وعد ناشره بصدوره في تاريخ لاحق. ومـاذا نرى لو دخلنا بيت القارىء العربي، او المثقف العربي، اننا سنجد كتبهم في صناديق خشبية بسيطة، او في شبابيك ولواوين غرف النوم، او على رفوف غير مرتبة ولا منسقة، بحيث يسهل استخراج الكتاب المطلوب عند الحاجة في يسر وسهولة. هذا إن كان باحثاً، أما اذا كان قارئاً عادياً فإنه يقرأ المجلة او الكتاب ثم يرميه في غير مكانه لينال حظه من الاهمال، في حين ان هذا القارىء يهتم بهندامه ولباسه وتصفيف شعره والنظر الى المرآة كثيرا.

ان ذلك يرجع الى عدم الاهتمام بالكتاب، او الاعتزاز به، او تقدير قيمة الفائدة الثقافية التي يحتويها، لذا نجد الكتاب كاسداً في الاسواق، ونجد الناس يقفون على واجهات محلات بيع السكاكر والالبسة والاحذية اكثر من وقوفهم على واجهات المكتبات، ولقد سمعت ذات يوم شاباً ينهر صاحبه الذي كان يسير معه ووقف على واجهة المكتبة ينظر للكتب ويقول له: هيا بنا!! أما بقي لنا إلاّ ان نقف على واجهات المكتبات نتفرّج على الكتب؟!!

لهذا السبب نجد ان الذي يطبع كتاباً سواء على نفقته الخاصة، او تبنته دار نشر ذات شهرة، نجده يواجه كساداً، فهو اما ان يتكدس في بيت صاحبه او مستودع الناشر، او يباع على العربات والارصفة، لا يكاد ان يقلّبه احد، لحاجتهم الى ما هو اهم من الكتاب بنظرهم، يقصدون بذلك الطعام واللباس.

* **أساليب بيع رخيصة**

يلجأ بعض المؤلفين أو صغار الناشرين الجدد ـ الى اساليب غير قانونية، ولا اخلاقية لضمان نفاد النسخ المطبوعة من كتبهم، كأن يقوم المؤلف بإهداء نسخة الى مسؤول كبير او مدير دائرة او رئيس جامعة، او قائد قطعة عسكرية، ويظهر له الاستعطاف وقلّة الموارد، وكثرة النسخ المهداة، والتكلفة

الباهظة، فيستلُّ منه اشعاراً بتوزيع الكتاب في الدوائر والمؤسسات ولامدارس من غير احراج او اجبار، فيذهب المؤلف بعد ذلك يحمل الاشعار الذي يحمل صفة الإلزام، معنسخة من الكتاب ليقدمه لمدير المدرسة او لقائ القطعة.. ثم يزتيه بمئات النسخ في اليوم الثاني لتوزع على الاطفال او الجنود او المواطنين الذين يراجعون دواذر الدولة، فيفرض عليهم فرضاً، وتؤخذ قيمته منهم قسراً، ومن يرفضه فإن معالمته في الدائرة لن تسير كما يرام.

هناك اسلوب اخر لتصريف الكتاب هو ارخص من الاسلوب السابق، حيث يقوم المؤلف بالاتفاق مع مدير الدائرة او المؤسسة فيمنحه مبلغاً معيناً، او نسبة من سعر غلاف الكتاب ليفرضه الآخر على المواطنين المجبرين الى اللجوء الى دائرته، اويفرضه المدير على سائر طلاب مدرسته.. وهكذا يضاعفون ثمنه اضعافاً ويباع سريعاً.

ونجد بعض المؤلفين المتحذلقين يطبعون في المطابع «بطاقات شرف» يرفقونها نسخة تحمل إهداء الى المسؤولين الكبار ومديري الدوائر والاطباء والاثرياء، فيجمعون بهذه الاساليب (المزوّقة) اضعافاً مضاعفة للتكلفة.

نجد القارىء الذي تفرض عليه هذه الكتب بهذه الطريقة يقابل الكتاب والمؤلف بموقف سلبي متطرف، فهو يهيل له السباب والشتائم، ويلعن الذين سمحوا له باتباع هذه الاساليب الرخيصة، ثم يمزقه ويرمي به في سلّة المهملات.

أما هذه الكتب التي تباع وتوزع وتفرض بهذه الاساليب الملتوية فإنها اذا عرضت في واجهات المكتبات فلن تباع منها نسخة واحدة.

* **جشع الناشرين**

ينقلب الناشر احيانا ذئبا كاسرا، حينما يسطو على مؤلفات غيره الرائجة فيستبيح حرمتها ويصورّها خلسة ويقذف في الاسواق الاف النسخ المزوّرة.

او ان يشتري النسخة المخطوطة من صاحبها بثمن بخس يمتلك بموجبه حقوق الطبع مدى حياته. وفي هذه الحالة يكون المؤلف استفاد فقط ما أخذه في المرة الاولى، بينما استفاد الناشر الكتاب دائماً ومن حقه ان يبيع حق الطبع لغيره.

التقيت بصديق لي يعمل في سلك الصحافة، وراح يحدثني عن هموم الكتاب، ثم قال: لقد بعت كتابي الفلاني لمكتبة دار الـ..، وأعطاني مبلغ خمسة آلاف ليرة تقسيطاً، وسكت مشدوهاً وقال: إن الكاتب في الدول المتقدمة يجني ربحاً من اول طبعة ما يكفيه مدى حياته، فكيف اذا تعددت الطبعات، ثم كيف اذا ترجم الى لغات اخرى؟!! وعاد يقول: لقد اعطاني الناشر عن جهودي في تأليف كتابي بمعدل رابت شهري، أكلته خلال شهر، واتخذه هو بقرة حلوباً مدى الحياة.

لقد كنت اعرف كتابه الذي اشتراه منه النشار، لقد ربح في الطبعة الاولى وعددها /٣٠٠٠/ نسخة مايزيد على مائة الف ليرة.. وقد أعيد الكتاب خلال خمس سنوات ما يزيد على سبع طبعات، ولا يزال يطبع، وسيطبع.

* **معابثات الناشرين**

يتلاعب بعض الناشرين باسعار الكتب بطريقة التفافية على القارىء والمؤلف معاً، يفذلكون سعر الكتاب، ويتخذونه ألعوبة، ويقولون: الكتاب يمر بأطوار مختلفة حتى يصل الى القارىء.

وكيف يكون ذلك يا صاحب الاطوار؟

يقول بعجالة: نحن ننشر الكتاب ونبيعه لتاجر جملة الجملة، وتاجر جملة الجملة يبيعه لتاجر الجملة، وتاجر الجملة يبيعه لتاجر نصف الجملة، وتاجر نصف الجملة يبيعه لبائع المفرّق، وبائع المفرّق يبيعه للقارىء المستهلك.

وبهذه النظرية يصبح الكتاب في دوّامة، ولعله يكون في يوم من الايام في عداد الكبريت الاحمر ندرة.

إن الكتاب الذي يكون سعر غلافه

مائة ليرة، يجب ان تكون تكلفته خمسة وستين ليرة، يعطى بائع المفرق (صاحب المكتبة) ٢٠٪ والموزع ٥٪ والناشر ١٠٪.

والكتاب الذي تكون تكلفته عند الناشر المستقيم تسعين ليبيعه بمائة ليرة، ويبيعه وكيله الموزع بمائة وخمس ليرات، ويشتريه القارىء بمائة وخمسة وعشرين ليرة، وهذا ربح مشروع وعمل مستقيم لا غبار عليه.

بينمانجدنفس الكتاب عند ناشر جشع، يتلاعب بالكتاب والسعر بالطريقة التي يرتئيها مناسبة لمصلحته، فإنه يقوم بالعملية التالية:

يبيع الكتاب لتاجر جملة الجملة بمبلغ ١٠٠ ليرة. ويبيعه تاجر جملة الجملة لتاجر الجملة بمبلغ ١١٠ ليرات. ويبيعه تاجر الجملة لتاجر نصف الجملة بمبلغ ١٢٠ ليرة. ويبيعه تاجر نصف الجملة لتاجر المفرق بمبلغ ١٣٠ ليرة ويبيعه تاجر المفرّق (صاحب المكتبة) للقارىء بمبلغ ١٦٠ ليرة.

هنا يتحمل القارىء جميع الزيادات غير المشروعة التي فرضها عليه التاجرالجشع (الناشر) ليحقق ربحاً سريعاً، ويتفرغ لصفقة جديدة مع كتاب جديد.. وهكذا.

لقد وقعت كثير من وزارات الاعلام والثقافة والموسسات العلمية، والاتحادات النسائية، والصحفيين، والكتّاب والمؤلفين في نفس الخطأ الذي ارتكبه الناشر الجشع، فتكدست مطبوعات تلك الجهات جميعها في المستودعات بدلا من ان يتلقفها القارىء بلهفة. لقد قامت تلك الجهات بمنح حسم بلغ ستين بالمئة من سعر الغلاف. فالكتاب الذي سعره /١٠٠ ليرة/ تكلفته /٤٠ ليرة/ ويأخذ البائع والوسطاء/٦٠ ليرة/.

والسؤال: لماذا لا تجعل تلك الجهات سعر الغلاف خمسين ليرة ويكون هذا الكتاب كتاباً شعبياً، تضاعف كمية الطبع وتتكرر الطبعات؟!!

ولا مانع من تصدير هذه الكتب خارج حدود الدولة الناشرة، وذلك بالتعامل على اساس سعر (الدينار العربي) الذي تتعامل به بعض المصارف الاسلامية، ويمتاز بثبات القيمة، وتعديل جميع العملات الاخرى على أساسه.

* تزوير الكتب

يكاد عالمنا اليوم يأخذ صفة التزوير في كل شيء، فقد نال لتزوير الاطعمة المعلبة، والعملات الورقية والمعدنية، والطوابع، والشيكات المصرفية، وحتي توقيع الانسان وبصمة اصبعه، واصبحت الالات تنتج بضاعة مزورة، وادخلوا الكتاب هذا الميدان، وهو الذي يجب ان يكون ابعد الموجودات عنه. وتحت شعار «كل شيء خاضع للتزوير» راح المتسللون بين الناشرين يزورون كثيراً من الكتب، تحمل نفس مواصفات الطبعة الاصلية، وذلك بطريقة التصوير.

والمتتبّع لنسخة أصلية واخرى مزوّرة لنفس الكتاب يجد فارقاً كبيراً في الجزئيات (نوع الورق ووزنه ودرجة لونه، ومدى نعومته، وطريقة خياطة الكتاب ولون الخيطان، والصفائح الداخلية التي تلي المجلد الفني، ونوع البيز ولونه ونعومته ونقوشه، ودرجة ضغط العنوان الخارجي عليه عند تذهبيه) وغير ذلك مماي عرفه اهل الخبرة.

إن هذا الكتاب المزور يحتوي نفس معلومات الكتاب الاصل لكنه لا يحمل نفس المواصفات والدقة في الطبع والتجليد، فهو كتاب من غير هوية يتبرأ منه حتي الذي طبعه فهو بمثابة «اللقيط».

إنها عملية سطو، وغزو للكتاب في الظلام، دافعها الاول والاخير هو شجع التاجر المزور، وجمع المال الكثير بوقت قصير، من غير جهد، والتذرع عند الفضيحة بذرائع كاذبة، تنحصر في وسيلتين:

الوسيلة الاولى: نراهم يتباركون على الكتاب الذي يتلاعب باسعاره الناشر الجشع، فهو يحتكره ويرفع سعره بالشكل والوقت الذي يريد ، فنرى هذا المزور يتباكى على الكتاب، وعلى سعره المرتفع،

ثم يلتوي بالسامع الى دخل المواطن، وأنه لا يستطيع ان يقتني الكتاب بالسعر الباهض. انه يعصر عينيه فيذرفها علي الكتاب دموعاً غزيرة. ويجعل من نفسه ذلك الوصيَّ الرؤوف الرحيم.

الوسيلة الثانية: نرى هذا الذئب الكاسر يقوم بدور الشيخ الواعظ ـ فيلبس جبة ويعتم بعمامة، ويرخي لحيته الكثة ليتصدر مجالس الوعظ والارشاد، ويتباكى على العلم الذي كاد يندثر بسبب فقدان الكتاب وغلائه.

يقول شيخنا الواعظ: ان الاسلام يحض على العلم، ويعمل على نشره، وان ارتفاع اسعار الكتاب تحد من انتشاره لدى الطبقة الدنيا من القرّاء، وصغار طلبة العلم، وان الناشرين يتبعون اساليب التجار الجشعين في احتكار البضاعة وبيعها في السوق السوداء، وان الكتاب يجب ان لا يخضع للابتزاز والاحتكار، فإن نشر العلم فريضة وان الجهل مصيبة الامة والشعب، وان بدعة حقوق المؤلفين دخلت على المسلمين في بداية القرن العشرين عن طريق الغرب الذي جلب لنا كل المصائب.

تلك بعض النصائلح الكاذبة التي بها يتشدقون لتغطية جشعهم.

إنهم يلبسون جلد الحمل الوديع على قلوب السباع الكاسرة. ويعلمون في الخفاء والظلام، بعيداً عن الرقابة، وبعيداً عن السماح بالطبع، وبعيداً عن القانون والاخلاق.

*** كيف تسرق الحقوق؟**

يفلسف النشار الجشع مهنته ليجعل منها مهنة انسانيةنبيلة، وهو يتناسى الانسانيةوالنبل حين يقوم بتسعير كتاب يصدره، فينقلب الي وحش كاسر ضد حمل وديع. فالقارئ محدود الدخل، يقتصد ثمن الكتاب من قوته وقوت من يعيل.

والناشر يريد ان يحيط بالقارئ المستهلك من كل جانب، ويتبع معه جميع اساليب المراوغة والمخاتلة للتلاعب بتسعير الكتاب، ليشعر القارئ انه يمنُّ عليه بتقديم الكتاب المطلوب بأقل تكلفة وادنى ربح.

إن اغلب الناشرين يحتالون على المؤلف والقارئ فيعطون المؤلف مبلغاً يسيراًمن المال قد لا يعادل قيمة الكهرباء التي استضاء بها لكتابة كتابه، ويطبعون الكتاب عشرات الطبعات، الاولي قانونية وما بعدها في معزل عن الضمير. الطبعة الاولي تحملت جميع تكاليف الطبع من تنضيد وتصحيح واخراج وافلام وطبع، مروراً بخطوط وصور وتجليد ودعاية، بينما لاطبعات التي بعدها لا تكلف اكثر من ثمن الورق والطبع والتجليد الا قليلاً، مع العلم انهم غالباً يحددون عدد نسخ الطبعة الاولي الفاً بينما يطبعون اكثر من ذلك بكثير.

التقيت ذات يوم بصديق لي يمتهن التحقيق والنشر، ودار بيننا حديثا عن حقوق الطبع وشرف المهنة فقال لي: أما تعرف فلاناً؟!

قلت: بلى، إنه ناشر، إنه صاحب المكتبة الفلانية.

قال: لقد اتفق مع الاستاذ (س..) على طبع سبعة الاف نسخة من كتابه (...) فطبع مائة واربعين الف نسخة!!

وذهلتُ للنبأ العظيم .. فقلت: وكيف؟!!

قال: طبع سبعين ألفاً، ثم طبع سبعين ألفاً اخرى.. وبينهما دعوى في المحكمة الآن.

وبعض جشعي مهنة النشر يرون بثاقب فكرهم، ان كتاباً يرغبه القرّاء دائماً ، ولنقل انه (رجال حول الرسول) لخالد محمد خالد او كتاب (فقه السنة) للسيد سابق. فنجد الناشر يدفع مبلغاً من المال لشراء كتاب من كاتب دون الوسط في الكتابة، ويذهب الى خطاط ومخرج فيطبعه طبعة مشابهة للطبعة الاصلية طباعة وتجليداً. او يقوم بتصوير الكتاب الاصلي خلسة دون علم المؤلف ولاناشر الحقيقيين.

وقد صدر نحو عشرة كتب مماثلة

لعنوان (رجال حول الرسول) بينما صدرت عشرات الطبعات المزورة لهذا الكتاب في كثير من الدول العربية، ولذلك اختلفت اسعاره كثيراً بين طبعة واخرى.

يقول الاستاذ مظهر الحجي عن ظاهرة سرقة حقوق المؤلف: «إن هموم النشر تقودني الى الحديث عن ظاهرة السرقات العلمية المعاصرة، فاذكر هنا عملي في ديوان ديك الجن المطبوع في وزارة الثقافة السورية قد طبع عينه في لبنان طبعتين لمحققين مختلفين، وفي كل مرة كان المحقق السارق يكتفي بحذف اسمي، وتدوين اسمه على غلاف الديوان).

ويذكر الاستاذ الحجي مكان وزمان طبع كتابه في بيروت واسماء الذين زعموا انهم حققوه!![٢]

وفي عام ١٩٨١ وشى صاحب مطبعة في حلب لي وشاية عن صاحب مكتبة في منطقة باب الحديد قام بتصوير كتابي «غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم» واخبرني عن مكان وجودها في مكتبته، فما ذهبت اليه، ودخلت مكتبته، اسرعت الى المكان الذي اخبرني به الواشي عن مكان كتبي المزورة فوجدتها اكداساً.

وجاء صاحبي بالامس مطاطئاً رأسه فقلت له: لم فعلت هذا يا .. وتلعثم، وحاول ان يجد جواباً، فقال: لقد طلبت منك ان تطبع لي تتمة الغزوات الناقصة فلم تجبني.

قلت: متى قلت لي هذا الكلام!!

ولم يسعفه الحظ بالاجابة فتلعثم مرة اخرى.. وصمت.

وبعد حديث طويل، واخذ ورد، تبين لي انه طبعه في مدينة حمص، وراح يقسم الايمان المغلظة انه سيرسل لي الافلام والبلاكات المزورة. واعطاني عدداً من النسخ المزورة. اما الافلام فلم تصل بعد.

ان مزوري الكتب يطبعون كميات كبيرة من الكتاب الرائج في الاسواق، وهم بذلك يختارون العناوين الاكثر شعبية وتداولاً وشغفاً، في الاسواق المحلية والمجاورة ومعارض الكتب المختلفة.

ونلاحظ ان الكتب المزورة تزاحم الطبعة الاصلية الشرعية بالسعر، ولكنها لا تنافسها بالجودة، وكثير من القراء لا تهمهم الطبعة اكثر مما يهمهم اقتناء الكتاب.

ومن اسباب رخص الكتاب المزور انه طبع بعيداً عن الرقابة، وقانون المطبوعات والمكتبة الناشرة، فلم يخضع للضرائب ولا للمصاريف الاخرى، كما ان المزور يقوم غالباً بحذف الفهارس من اخر الكتاب لتقل التكلفة، ولان المستهلك يهمه الثمن قبل ان ينظر الى الفهارس والطبعات السيئة.

اما حين يموت المؤلف ويمرّ على وفاته خمسون عاماً فنرى تجار الكتب يهرعون لنشر كتابه، او يصطنعون تحقيقاً طفيفاً لاستباحة حق الطبع به، وجني الربح الوفير من نشره، وهنا نجد عشرات الطبعات المزورة للكتاب الواحد، بعشرات التحقيقات التجارية ككتاب قصص القرآن لجاد المولى، ونور اليقين لمحمد الخضري رحمهما الله.

وقد صدر نحو عشرة كتب مماثلة لعنوان (رجال حول الرسول) بينما صدرت عشرات الطبعات المزورة لهذا الكتاب في كثير من الدول العربية، ولذلك اختلفت اسعاره كثيرا بين طبعة واخرى.

والسؤال الذي اطرحه: ما هو دور القانون في تزوير العملة، وما هو دوره في تزوير الكتاب؟!!

*** الكتاب للزينة**

لقد اصبحنا نجد القارىء يتحسّر على اقتناء الكتاب، بينما نجد شاري الكتاب مغتبطاً بكتاب غلافه جميل، براق، مذهب. فهذا يشكل عبئاً على ذاك، ففي حين ان الكتاب غذاء روحي عند عشّاق الكتب، نجده عن الموسرين لملء فراغ، او تحفة جميلة في غرفة الضيافة. وقد سمعت مقولة لأحد جامعي الكتب في دولة خليجية حين ذهبت مشاركاً في بعض

المعارض الدولية، يسأل فيها عن كتاب من غير رغبة.

هل لديك كتاباً يقع في اربعة مجلدات، لونه احمر قاني وحجمه من قياس (١٧×٢٤سم)؟!!

قلت: ما اسم هذا الكتاب وما اسم المؤلف؟

قال: لايهمني اسم الكتاب ولا المؤلف، ولكن تهمني هذه المواصفات التذ ذكرت لك.

قلت: وكيف لا يهمك الكتاب ولا المؤلف؟

قال: لأنني أملك مكتبة ضخمة في بيتي، وكل رف له لون خاص، فامتلأت الرفوف، وبقي في الرف الذي تمتاز كتبه باللون الاحمر فراغ يتسع لاربعة مجلدات، من نفس اللون، فأنا ابحث عن نفس الحجم واللون لملء الفراغ، وكفى.

إن هذا الانسان الذي يقتني الكتب بهذه الطريقة لا يمثل القارىء العربي، بل يمثل الموسر العربي في كل عصر، فهو يشكل مشكلة وضع الكتاب في غير مكانه، واقتنائه عند من لا يقرأ.

إننا نقف علي مفترق طرف خطر!!

فالقارىء المتعطش لاقتناء الكتاب وقراءته واحتضانه والمحافظة عليه، لا يستطيع اقتناء الكتاب فهو محروم من نعمة القراءة، لانه يشعر ان اقتناء الكتاب صار حلماً يراوده دائماً بسبب الغلاء.

بينما نجد الذي يستطيع شراء الكتاب ابعد الناس عن القراءة، فهو يعتبره من الزينة التي يزين بها منزله كالنباتات والصور، وأقفاص البلابل...

*** حقوق المؤلف والطبع**

ان المؤلف والمحقق يبذلان جهوداً مضنية يجهلها الكثيرون، ولا يعرفها الا من كابد ذلك، وفي كثير من الاحيان لا ينال المؤلف من كتابه اكثر من أذن الجمل. اما بقية الطبعات فإن ارباحها تعود للناشر فقط. صحيح ان المسلمين لم يعرفوا حقوق الطبع من قبل، وانها لم تكن معروفة عند علمائهم وادبائهم وكتابهم ولكنهم (كانوا يعتمدون في معاشهم على وسائلٍ للرزق اثبت من هذه واقوى اساس، او على هبات الامراء او الاثرياء)[٣]

لقد اصبحت الكتابة مهنة كسائر المهن، ولها رأسمال كبير لشراء الكتب، والفراغ للقراءة الغزيرة، والكتابة، وجو البيت الهادىء الذي يهيء الكاتب للتاليف، والشعور المرهف الذي يجعل الكاتب مهيأ للكتابة عن موضوع ما. وغير ذلك مما لا يعرفه الا الذي عاش الكتابة وعمل في التأليف.

أليس من حق المؤلف ان يعيش كمن هم مثله في الوعي من كبار الموظفين، او من هم ادنى منه بكثير من كبار التجار واهل المهن الحرّة؟!!

يقول الاستاذ مظهر الحجي عن تحقيقه لديوان «ديك الجن»: (لقد قضيت في جمع المادة وتصوير بعضها من الكتب المخطوطة. ثم في شراء بعض المصادر او استعارتها، ثم في دراستها وتنسيقها واخراجها، اوقل: قضيت في هذا العمل قرابة اربع سنوات، ثم تقدّمت بعملي الي وزارة الثقافة فأولته من الاهتمام ما أولته، وتفضّلت بطبعه بلا تأخير ثم توزيعه. وقد نفدت نسخ الديوان بعد اسوبعين من صدوره وتوزيعه تقريباً، وعلى القارىء الآن الا يدهش او يصدع او يصاب بالمس اذا علم ان مكافأتي عن العمل لم تبلغ تمام الاربعة آلاف ليرة سورية فقط لا غير. فهل وازت هذه المكافأة ما بذلت في عملي هذا من مال اذا ضربت صفحاً عن الوقت والجهد؟!!)[٤]

لقد اجتهد العلماء واهل القانون في هذه القضية المستجدة لضبط حقوق كل طرف، ودرد خطر الفوضى والتسيّب. يقول الدكتوريوسف القرضاوي:

١ ـ ان الكتاب ملك لمولفه، ولهذا ينسب اليه، ويحسب عليه، ويحاسب على أخطائه، وملكيته هنا ملكية علمية أدبية، وهو امر اعترف به العالم كلّه في قوانينه المدنية.

٢ ـ ان الكتاب العلمي لا يأتي عفواً، إنما هو ثمرة كفاح طويل، كوّن به صاحبه شخصيته العلمية، ثم هو نتيجة جهد جهيد، وسهر بالليل، وعرق بالنهار، لا يعرفه الا من عاناه، وربما استغرق الكتاب من صاحبه سنين حتى يبرز الى حيّز الوجود..

٣ ـ إن حياة العالم المؤلف ليست حياة سهلة، كحياة سائر الناس، انها تتطلب جهداً خاصاص زائداً على جهود العاديين من الناس، كما تتطلب نفقات خاصة زائدة ايضاً على نفقات الاخرين.

٤ ـ ان المؤلف قد يصدر طبعة من كتاب، ثم يتراءى له بعد صدوره اشياء يقتضيه ان يضيف او يحذف او يعدّل، بناء على اطلاع جديد، او تغير اجتهاد، او اقتراح مقبول، او غير ذلك، فإذا لم يعلم الطابع او الناشر ماذا عند المؤلف من تعديلات وتنقيحات فإنه سينشر الكتاب على ما كان عليه.. وقد كان علماؤنا قديماً لايستبيحون واية كتاب عالم ما الاّ (بإجازة) منه، وقد كان بعض العلماد يعطي بعض طلابه (إجازة خاصة) برواية كتاب معين، واحيانا يمنحه (إجازة عامة) برواية كتبه كلها. وهذه الاجازة تشبه حق الطبع او النشر في زمننا، أضيف اليها عنصر جديد وهو: ان المولف يتقاضى اجراً على جهده في التأليف، ويشارك الناشر في جزء من الربح الذي يصيبه من وراء نشر الكتاب)[٥]

فهذه الاسباب تعطي المؤلف حق ملكية الكتاب تضحيحاً وإضافة وحذفاً، وشرحاً وتهذيباً، وبيعاً، وتوزيعاً. وقد تنبّه الغرب الي حق المؤلف في كتابه مهما كان نوعه (فعقدت اول اتفاقية دولية لحماية حق المؤلف في التاسع من ايلول عام ١٨٨٦م وسميت (معاهدة برن لحفظ حقوق المؤلفين) وقعت عليها كل من سويسرا وفرنسا وبريطانيا وبلجيكا وايطاليا، ثم انضمت اليها دول عديدة)[٩]

وجاءت مصر في مقدمة من اعطى المولف والمخترع حقه، فقد اصدر المشرع المصري قانوناً يهدف الى (حماية حق المؤلف رقم ٣٥٤ لسنة ١٩٥٤ وقانون تنظيم الرقابة على (المصنفات) رقم ٤٣٠ سنة ١٩٥٥ ثم اجرى عليهما بعض التعديلات بالقانون رقم ٣٨ لسنة ١٩٩٢م)[٧]

وقد شدد القانون الاردني العقوبة على من يعتدي على حق المؤلف الاردني او الكتاب الذي يطبعه اجنبي في الاردن وذلك (في المادة ٥٣ من القانون الاردني لحماية حقوق المؤلف رقم ٢٢ لعام ١٩٩٢)[٨]

وهذا ما يجعلنا نطالب ان تصدر جميع الدول العربية والاسلامية قوانينا تحمي المؤلف من خطر التزوير في بلادها، وتنفيذ هذه القوانين من اجل دعم الكتاب، ودفعه الى الامام، فيتشجع القارىء الى اقتناء المزيد، وينضبط الناشر بالعناوين القانونية التي يوزعها، وان الكتاب ليزدهر اذا راعينا حق المؤلف والناشر، بينما نجد الكتاب يتروى اذا بعثرنا القانون، ولعبنا بحقوق الناس في الظلام، وقد ازدهر الكتاب في الغرب بسبب الضوابط التي تضبطه قانونياً، فجاءت النتائج مرضية للناشر والمؤلف .

بينما تردى الكتاب في الشرق بسبب الفوضى وهضم الحقوق، فاختلفت بسبب ذلك نسبة حق المؤلف من مؤلّفه في الطبعة الاولي فبلغت احياناً ١٥٪ من سعر الغلاف لقلّة عدد النسخ المطبوعة قانونياً بينما يُطبع اكثر من ضعفين في الخفاء، في حين ان المؤلف في الغرب لا تصل نسبة حقوقه عن ٣٪ بينما يطبع اكثر من مائة الف نسخة، وبلغت بعض الكتب اكثر من مليون نسخة في كل طبعة، واذا ترجم الى لغة اخرى اخذ حقه ايضا.

لذلك لا يصبح الكتاب في الدول المنضبطة بالنشر وحقوق المؤلفين جامداً في المستودعات، تنتابه عوامل التلف والاتلاف.

*** كيف نقتني الكتاب**

كثير من الناس حين نقول له: كم كتاباً قرأت؟ يقول: وهل امتلك وقتاً لأقرأ

فيه!! او يقول متشائماً: وهل يكفيني الراتب حتى اشتري كتاباً!! وهل اجد الكتاب الذي ابحث عنه؟!!

وهل صحيح ما يقوله صاحبنا؟

لا بد ان نطرح عليه اكثر من سؤال: هل تدخّن؟ هل تجلس في المقهى؟!! هل تزاول ألعاباً رياضية؟!! متى ينتهي دوامك من عملك؟!! كم هو عدد ساعات الفراغ لديك؟!!

إن المدخنين وروّاد المقاهي هم الذين يقتلون انفسهم واوقات فراغهم بأيديهم، ولو ان احدهم حكّم ضميره وعقله في المال الذي يحرقه في لفائف الدخان، وعلى طاولات المقاهي لاتضح له انه يهدر اكثر من الف ليرة شهرياً، فلو انه اشترى كتباً بها، يقضي فيها اوقات فراغه لاستفاد منها علماً وادباً، ولجمع بعد سنوات من اقلاعه عن التدخين وارتياده المقاهي مكتبة ضخمة في بيته تنفعه وتنفع اولاده من بعده.

اما اذا قال: لا أدخّن، ولا أرتاد المقاهي، ولديّ فراغ قلنا له: لا تخلو مدينة او منطقة من مكتبة عامة او مركز ثقافي فلماذا لا تتردد عليهما وتعبّ من تلك العلوم كما يعبّ منها طلاب المدارس؟!!

قد لا ينبس ببنت شفة، وقد يتهرّب من الجواب!!

لماذا لا نشجع أبناءنا على شراء كتاب ولو في كل شهر، مما يدخره من مصروفه اليومي؟!!

لماذا لا نلقّن بناتنا صور بطولات النساء الفاضلات في تاريخنا، فيقتنين الكتب التي تتحدث عن المرأة؟!!

لماذا لا نضع بين يدي المرأة سيّدة البيت كتاباً ترجع اليه وتستأنس به في اوقات فراغها تقرأ فيه عن ادب المرأة مع زوجها وواجبها تجاهه، وحقّه عليها، وواجبها تجاه اطفالها وبيتها وجيرانها، وامور دينها وآداب السلام وحثّه على الاخلاق، تجد في هذا الكتاب مايزيل اتعابها وهمومها؟!!

لماذا لا نرجع الى الكتاب لحل خلافاتنا ومشاكلنا اليومية التي نعانيها بحلول رآها من اصيبوا بمثلها وخرجوا منها سالمين؟!!

لماذا اذا نزلنا الى الاسواق لا نقف امام واجهات المكتبات لنرى اخر ما صدر، ونشتري جريدة او مجلة بدلاً من علبة الدخان؟!!

إن عدم اقتناء الكتاب مشكلة. لكننا نستطيع ان نتخطّى المشكلة حين نقتني الكتاب، ونقرأ مافيه، فنحبه، ونحتضنه، ثم لاندعه يفارقنا في بيوتنا واماكن اعمالنا.

*** واجبات الدولة تجاه الكتاب**

احيانا نلوم بعضنا في عدم اقتناء الكتاب والمطالعة، ولكننا نضع عبء اللوم على الدولة في تقصير اي موظف تجاه المواطن في اي عمل يقوم به او يقدمه له غير كامل، او على غير مايرام.

واذا علمنا ـ كما هو مفروض ـ ان الدولة مع الشعب، وتقوم بخدمة الشعب، أدركنا أن بعض المسؤولين يرتكبون اخطاء بسبب رفع المسؤولية عنهم، وعلى سبيل المثال: قد يمنع مراقب ما كتاباً من السماح بالطباعة من اجل عبارة اشكلت عليه، فلم يفهمها وينسى الاف العبارات المفيدة والايجابية في نفس المخطوط. انه يمنع كتاباً كاملاً من الطبع من أجل أن لا يلومه مديره على العبارة التي أشكلت عليه!!

ومراقب الكتب كما ذكرنا قد يتصرف تصرفاً فردياً في شطب بعض العبارات، او يشترط تغييرها، او ان شاء منع الكتاب فلم يسمح بطباعته، وهو لا يعلم بدوره، ان الفكر لا رقابة عليه، وان العالم بأسره يطبع الكتب والمجلات والصحف والدوريات من غير رقابة رقيب، او هيمنة عتيد.

وموظف الجمارك يضع رسوماً على البضائع الداخلة الى البلاد، ويضع رسوماً على من يدخل معه مجموعة من الكتب، ولكنه لا يعلم او لا يمتلك الجرأة لإعفاء الكتب مهما بلغت كميتها مع الطلاب

الذين اشتروها كمراجع دراسية، ولأن الكتب مهما كانت وفي جميع دول العالم تعفى من الرسوم والضرائب وتعبر الحدود بلا قيود. واجور النقل الباهظة جواً، وطروداً بريدية تقف عائقاً امام تقدم الكتاب، فالكتاب لا يمكن ان يسير اذا اثقلته القيود، بينما نجده طياراً في جميع الاجواء حينما يكون حراً، متحرراً من التبعات والمعوّقات، ليكون سفيرا للدولة في الدول الاخرى، وليعطي صورة صادقة عن حرية النشر والفكر والطباعة لدى الاخرين.

ان من واجب الدولة ان تساهم في تشجيع الطبع فتعطي الكثير من المكافآت للمؤلفين واهل الفكر، وتمنح مبالغ محددة لكل مؤلّف تجد فيه نفعاً وخيرا لشعبها، تكون هذه الهبة مساعدة وتشجيعا للطبع والنشر والكتابة، ومن ثمة تشجيعاً لذوي المواهب الكامنة.

وكما ان الدولة تشجع دخول الكتاب برفع الرسوم الجمركية والعوائق الحدودية ـ فكذلك تقوم بتشجيع تصوير الكتاب، وذلك بوسائط النقل المختلفة ـ وبأرخص الاسعار ـ وتيسّر اموره للطابع والناشر والموزع ليعود عليها بالقطع النادر والربح الوفير لمواطنيها.

وخير وسيلة لتشجيع الكتاب محلياً هو تزويد المكتبات المدرسية ومكتبات المراكز الثقافية ومكتبات الجامعات بالكتب التي تصدر اولاً بأول، وادخال الكتاب الى مكتبات المستشفيات كما عمله اجدادنا منذ اكثر من الف عام.

وان الدولة باستطاعتها ان تطبع الكتب المفيدة المختلفة، فتوزعها على جميع موظفيها في كل المدن والقرى، وذلك بعد اقتطاع القيمة من الراتب الشهري، وبذلك تكون الدولة قد ادخلت الكتاب الى كل بيت، ولو بصورة قسرية، وشجعت على اقتناء الكتاب، واقامت مكتبة مفيدة في كل بيت.

*** مشكلات اخرى**

ان مشكلة العرب الكبرى هي: عدم التفكير بقيام الدولة العربية الموحدة، التي ترفع مستوى الانسان وتحلّ مشاكله. إننا حينما نطير بارة فوق الوطن العربي لا نجد حدوداً بين اقطاره، لكننا حينما نريد الذهاب من قطر لآخر بالسيارة فإن عبور نقاط الحدود لا يقل عن مناطحة الجبال واختراقها. فكل شيء قد يُهرّب ويقفز من فوق الحدود وبأساليب كثيرة، الا الكتاب والفكر المطبوع في مجلة أو صحيفة، فإنه يكون في عداد المستحيلات.

ومع ان المخترعات الحديثة قد تخطّت اقسى انواع الرقابة ودوريات ونقاط الجمارك على الحدود كاختراع اجهزة الارسال والبث، واقتناء التلكس والفاكس التي ترسل اخطر الاسرار من غير القدرة على التحكّم فيها ومعرفة الجهة المرسلة، الا اننا لا نزال نعاني من مشكلة الرقابة علي الكتب الفكرية، والمطبوعات الدورية. ولا تزال الجمارك تفرض ضرائب باهظة على استيراد الورق والكرتون والاحبار، والمواد الاخرى التي تدخل في تضنيع الكتاب، مما ينعكس سلبياً على الكتاب في ارتفاع سعره، او اخراجه اخراجاً مبتذلاً بحثاً عن التكلفة الرخيصة.

ان الفوضى في التأليف وطرح العناوين الكثيرة، من غير دراسة موضوعية جادة لمضامين العناوين المؤلفة، تجعل القارىء في حيرة من امره، وتجعله يتردد في اختيار ايّ العناوين المطروحة في الاسواق.

ان تشديد الرقابة على الكتاب تجعل المؤلف يحجم وهو يكتب مادة كتابه عن ذكر الحقيقة واضحة، لأنه يعلم تمام العلم ان كتابه لن يوافق على طباعته، او انه لو وافق الرقيب على الطباعة، فلن يعبر هذا الكتاب حدود الدولة العربية المجاورة، وذلك لاختلاف انظمة الحكم العربية من جمهورية وملكية، تعمل بحرية الفكر والكلمة، او تمنع الكاتب والقارىء من البحث عن الحقيقة التي أصبح طعمها امر من العلقم لدى الباحثين عنها بإخلاص.

ان الفوضى في توزيع الكتب

والدوريات يقود القارىء الى العزوف عن المتابعة المستمرة.، فهو يتدرج من حالة التأخير الى حالات المنع من الادخال المنظم، الى حالات اليأس والقنوط التي تجر الى مقاطعة الكتاب وعدم التفكير في الثقافة، ثم وداعاً يا كتاب..

نلاحظ من خلال تجوّلنا في المكتبات، عدم التخصص في النشر والتوزيع، او تحديد نوعية خاصة من الكتب التي تقوم بنشرها او توزيعها، فمثلاً نجد المكتبة التي تبيع الكتب التراثية تجمع بين القديم والحديث، وبين القرطاسية والمعاجم، كما نجد المكتبة التي تختص ببيع الصحف والمجلات والدوريات تبيع قصص الاطفال واليانصيب والعلكة. وهذه لها سلبيات كثيرة، ان جازت في مدينة صغيرة مثل دير الزور، فلا يجوز ان تكون في مدينة كبيرة كدمشق وبيروت، ومع ذلك فإننانجدها في المدن الكبيرة اكثر مما نجدها ف المدن الصغيرة.

نصل اخيراً الى الاهم من جميع ما سبق وهو ارتفاع نسبة الامية في الوطن العربي، وازدياده في قطر عن قطر أخر، وهذا ما يجعل الكتاب العربي يتخلف عن نظيره في الاقاطر المتطورة الاخرى. (فقد ذكرت الاحصائيات التي جمعتها اليونسكو على اساس نصيب الفرد في الدول النامية بآسيا وافريقيا وامريكا اللاتينية، حيث يصعب مقارنتها، فالفرق يتراوح بين عشرين واربعين مرة.. وفي عام ١٩٦٦ اعطت اليونسكو الصيحة الاولى لمعالجة هذه الثغرة، وذلك في مؤتمر طوكيو لخبراء المكتبات بآسيا ووضع الخطط على مستوى اقليمي، وعلى أساس ان تعمّم على مستوى قومي بهدف زيادة حصيلة الكتب وخصوصاً في الاجزاء النامية من الدول)[٩]

تلك هي مشكلة الامية في عدم معرفة نعمة القراءة، إلا اننا نعاني كثيراً من اميّة هي ادهى من الاولى، وهي امية المثقّفين الذين يتخرجون من الجامعات والمعاهد فيقاطعون الكتاب وكل شيء مقروء مدى حياتهم، ويكتفون بمشاهدة التلفزيون، والجريدة الرياضية، ولاتردد على محلات الالبسة، أو الحلم بمنصب سياسي عن طريق الانتساب الى حزب سياسي او منظمة شعبية او ناد رياضي يوصل ذلك الأمي الجامعي الى المستوى الرفيع الذي يحلم به.

تلك بعض مشكلات الكتاب العربي التي نتمنى ان نتخطاها كما تخطّتها الدول المتقدمة والتي تقدمت علينا في جميع المجالات، واصبحنا بالنسبة لمن سبقنا، كمن يجري خلف السراب.

واخيراً...

ماذا نريد للكتاب العربي؟!!

هل اكثر من ان يكون في كل بيت، وكل دائرة ومكتب؟ وان يكون مرجع لك باحث عن الحقيقة؟!!

هل اكثر من ان يكون صديقاً للانسان، ومسليّة في ساعات العسرة، وحامل همومه؟

ثم.. ماذا يريدالكتاب منا؟

هل اكثر من ان نكون اهلاً لحمله؟ نحمله بأدب ووقار، ونقرأه بهدوء وفهم، ونتعامل معه بأخلاق حسنة؟

إن الكتاب أمانة.

وإنه لذكر لك ولقومك.

* **الهوامش**

١ ـ الآية ٥ من سورة الجمعة.
٢ ـ الاسبوع الادبي السورية ـ ملحق العدد /٧٧/ تاريخ ٣/١١/٩٩٤(ص٣)
٣ ـ قصة الحضارة (١٣/ ١٧٠).
٤ ـ جريدة الاسبوع الادبي السورية ـ الملحق رقم /٧٧/ (ص٣) تاريخ ٣/١١/١٩٩٤.
٥ ـ الرسول والعلم للدكتور يوسف القرضاوي (ص٨٣-٨٤) مؤسسة الرسالة ـ طبعة خامسة ـ بيروت ـ ١٩٩١م.
٦ ـ هموم ناشر عربي. محمد عدنان سالم (ص٩٧) دار الفكر، دمشق.
٧ ـ المرجع الابق (ص٩٢).
٨ ـ المرجع السابق (ص٩٤).
٩ ـ من تاريخ المكتبات (ص١٦٠)

*المراجع
ـ القرآن الكريم
ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة
ـ الرسول والعلم، د.يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، طبعة خامسة، بيروت، ١٩٩١م.
ـ هموم ناشر عربي، محمد عدنان سالم ـ دار الفكر ـ دمشق.
ـ قصة الحضارة، وول ديورانت
ـ من تاريخ المكتبات، د. خيال الجواهري ـ وزارة الثقافة ـ دمشق، ١٩٩٢م.
ـ جريدة الاسبوع الادبي ملحق العدد /٧٧/تاريخ ٣/١١/١٩٩٤.

طفلك..
والصحة النفسية

بقلم:
فاطمة عابدين

لما كانت النهضات الاجتماعية للشعوب رهناً بالصحة النفسية لأفرادها، فلا بد من تسليط الضوء على عوامل الصحة النفسية وأسباب اعتلالها عن طريق علم النفس ليكشف عن مكامن الخطر في أي ظاهرة نفسية لا تدل على صحة واقتراح السبل التي تؤدي الى منع المشاكل والمتاعب الفردية التي تحول بين الفرد وسعادته النفسية وكفاءته الاجتماعية.

ومن الطبيعي ان ينال عهد الطفولة من جهد هذا المعلم وغيره من العلوم الاهتمام الاكبر لذلك انشأت الامم المختلفة عيادات نفسية للاطفال ومعاهد لارشاد الامهات والحقت بالمدارس عيادات يقوم فيها خبراء نفسيون ومرشدون اجتماعيون لعلاج ما يبدو لدى التلاميذ من انحرافات في أولها أو من سلوك غير طبيعي. والاهل عادة يهرعون الى الطبيب لدى اي ظاهرة تشير الى مرض في اجسام اولادهم ولايبالون بما يحدثه إهمال الصحة النفسية من ضرر للطفل وما ستجره من ويلات اذا استفحلت. فالاهتمام بصحة الطفل النفسية اكثر من ضرورة.

لكي ينشأ الطفل سوي النفسية طبيعي التفكير والمزاج.

وما يجب ان يقال للآباء والامهات ان العطف ذلك الجو الجميل الهادىء الذي ارادت الطبيعة ان تحبو به الفرد في غضاضة عمره ما هو الا الموازن الطبيعي لذلك الضعف الذي يشعر به كل صغير تجاه الكبار. كما انه لا بد لنا من ان نعرف كل طفل ونفهمه فالكثير من الاهل ينظرون الى الطفل بمنظارهم فيحاسبونه

كما يحاسبون الكبير ويطلب اليه ان يرضخ لتقاليد وقواعد بنتها الانسانية لبنة لبنة خلال عصور طويلة وكثيراً ما يلح الاهل في هذا الطلب فيصبح الطفل حائراً بين ارضاء رغباته الخاصة وبين رغبة أهاليه فهو لا يفهم معنى ما نطلبه منه في هذا المجال بل يرى في طلباتنا واوامرنا ونواهينا نوعا من التعسف وقد تؤدي به هذه الحيرة الى اللجوء لأساليب ملتوية أو شاذة من السلوك.. وهذا ما يمكن ان نطلق عليه «الطفل المشكل». ومن نافلة المقول ان نذكر ان العطف ذلك الجو الجميل الهادىء الذي نحبو به الطفل هو اهم ما يحتاج اليه.. فنحن نحب الطفل رغم كل ما فيه من عيوب.. لكن علينا ان نفهمه وان نعرفه حق المعرفة ونعرفه نفسيته لكي نستطيع القيام على تربيته على أكمل وجه.

ففي مجال ما نطلب منه القيام به يجب ان يحل التفاهم والتفهيم محل الامر والنهي ويجدر بنا ان لا نتعنت فيما نحاسبه عليه من تصرفات ولا نحاسبه على كل ما يصدر منه تلبيته لحاجاته الضرورية فيما لا يضر. وان نذكر له الحكمة وفي كل ما نطلب منه القيام به لئلا يكبر وهو يعتقد ان أوامرنا ونواهينا ما هي الا نزوات لنا أونوع من التحكم فيه.

وعندما يخطيء الطفل. فهذا الخطأ هو جهله بما يعمل ولو عرف ذلك لما قام به، ومن الخطأ ان نسرف في تذكيره بأخطائه فقد يؤدي ذلك الى ان يعتاد على اللوم فلا يحفل به، واذا كان لوم الطفل وتنبيهه يحتاج الى مهارة وحزم فإن إثابته أيضاً تحتاج الى الكثير من الحذق والكياسة. فلا يجب ان نثيب الطفل على عمل الواجب لئلا يعتاد على طلب الثواب عن كل عمل يقوم به.

كما يجب ان لانلجأ للقسوة في معاملة الطفل فلها آثارها البعيدة في مصير الطفل النفسي والاجتماعي فيصبح دائم السخط والتبرم ويغدو قاسياً في معاملة الناس هذا اذا لم يصب بالوسواس والتشكك من آثار التربية الصارمة التي قد تنتج إما اطفالاً أليون نمطيون ينفرون من كل جديد او ثائرون ضد كل سلطة امتداداً لسلطة الابوين في البيت ومن ثم في المدرسة. كما ان القسوة تقتل روح الاستقلال والابداع عند الطفل وتحول دون نموه الصحيح وتربي فيه الشعور بالنقص. فلا بد اذن من ان نغمر الطفل بالعطف والحنان فالطفل المحروم منها يشعر ان شيئاً هاماً قد سلب منه والاهمال الروحي اسوأ انواع الاهمال: اذ يشعر الطفل بجرح في كبريائه ولا بد ان يفصح الطفل عن روح انتقامية لهذا الجرح ببعض الاعمال السيئة كالسرقة والعنف والتدمير يعوض بذلك عن هذه الكبرياء المجروحة. وفي نفس الوقت فإنه من غير المستحب الاسراف في تدليل الطفل والاهتمام به فيحسب نفسه مركز هذا العالم، لان هذا الحب الكبير يعيق عاطفة الحب من التطور والنمو الصحيح فلا يتهيأ الطفل لحب المستقبل في الكبر كحب الزوجة وحب الوطن تلك العاطفة التي تبقى ضامرة لديه كما تبقى اقدام العينيات صغيرة لكونها مدسوسة في قوالب من حديد.. وكثيراً ما يكون هذا سبباً في فشل الحياة الزوجية في المستقبل؟

كما يجب ان لا نلجأ الى إخافة الطفل من اجل تربيته أخلاقياً فتضعف ثقته بنفسه ويفقد الشعور بالامن والطمأنينة. وعلى الابوين ان يقدما الطفل للمواقف التي يظنها مخيفة تحت اشرافهما حتى يؤمن بأن ليس هناك ما يؤذيه كالخوف من الظلام او من ماء البحر او الحيوانات الاليفة الخ..

كما يجب عدم التقلب في معاملة الطفل من الشدة الى اللين او العكس فيعاقب ويلام على عمل مرة ولا يلام عليه احياناً مما يوقع الطفل في الحيرة فلا يدرك الصح من الخطأ.

ومن المسلم به الا يلجأ الابوان الى النزاع امام الاولاد مما يخلق في البيت جواً لا يستطيع الطفل ان يتحمله فيحاول الخلاص منه بأي ثمن وتتشوه بذلك فكرته عن الحياة الزوجية والطمأنينة في البيت كما ان مثل هذه المظاهر تضعف ثقة الطفل بأبويه ومن ثم ثقته بالناس جميعاً.

واخيراً فإن تربية الطفل النفسية على جانب كبير من الاهمية وعلى الأباء لدى ملاحظة اي انحراف على ابنائهم أو أي خلل او مظاهر شاذة في سلوكهم ان يعالجوا ذلك منذ الصغر لإن العلاج عند الصغار أيسر وأهون من علاجها لدى الكبار.. ولعل تلك المشاكل الصغيرة لو أهملت واستعصت كانت منافذ تطل على الامراض النفسية فيما بعد.

ولا يغيب عن البال ان للطفل حاجات نفسية كثيرة منها الحاجة الى العطف، والحاجة الى اللعب والحاجة الى الامن والحاجة الى الحرية والحاجة الى المغامرة والمخاطرة والحاجة الى الظهور والغلبة والحاجة الى التقدير الى غير ذلك.. وكلها حاجات يسعى الى اشباع رغباته فيها بفطرته.. ويرى فيما يعيق تحقيقها تدخلاً في شؤونه وتعدٍ على حقوقه..

ونحن عندما نقول له لا تفعل هذا ولا تقم بذاك، لا تتكلم.. الزم الهدوء، لا تنظر من النافذة، لا تمشي في الماء.. نضعه في الفراش ونطلب اليه ان ينام وهو لا يزال يريد ان يلعب .. نوقظه وهو يريد ان ينام.. فيشعر انه محاط بعمالقة ظالمين.

وقد نقسو عليه وهو بحاجة الى العطف او نبالغ في تخويفه وهو بحاجة الى الأمن، نتدخل في العابه فنحرمه لذة الفوز ونحول بينه وبين حبه للسيطرة والظهور. نضيق عليه وهو بحاجة الى الحرية او ننصرف عنه وهو بحاجة الى الاهتمام به الى غير ذلك من ضروب المعاملة التي تقيم في نفسه حرباً بين ما نريد وما يريد.

كما ان هناك وضع الطفل الاول ووضع الطفل الاخير اذ يجب ان يعامل الابوان اطفالهم جميعاً على حرص العدل سواء ـ كي لا تدب الغيرة في نفس الطفل من إخوته او ينبت الحقد في نفسه نحو إخوته وأبويه.

فالبيت الامثل، هو ذلك البيت الذي يضم بين افراده تلك الصلة الروحية الرائعة وتسود فيه المودة والرحمة فتنبت فيه عواطف المحبة والتضحية والتعاون، عواطف الصداقة والاحترام المتبادل فيتعلم الطفل معنى النظام وقيمته فيتقبله طواعية فقد عرف فيه الخير والسعادة. في مثل هذا البيت يخرج الطفل الى الحياة مزوداً بالعواطف الرضية والعادات الحميدة لتكون في يده سلاحاً ماضياً في الحياة واماناً من العلل النفسية في المستقبل.

أبو خليل القباني

ودورة في المسرح العربي

بقلم:
عبد الرحمن سرور

يعتبر القباني من الرواد الاوائل الذين ارسوا دعائم المسرح العربي وتنقسم حياته المسرحية الى قسمين الاول على صعيد المسرح السوري والثاني على صعيد المسرح المصري، ذلك لأن أبا خليل القباني عاش فترتين مسرحيتين اضطرته الظروف اليهما ورغم ذلك فقد كان دوره فعالا على مسيرتي المسرح السوري والمصري.

أحمد القباني ينتسب الى أسرة تركية كانت تسكن في (قونية) وهاجرت منها الى دمشق واتخذتها وطناً لها وسمي القباني لانه مارس مهنة القبان في سوق البزورية المعروف.

في بداية الحديث سوف أتكلم عن سيرة القباني المسرحية في سورية فقد كان القباني منذ صغره يهتم بالفن والموسيقى اهتماماً كبيراً وخاصة التمثيل وبعد ان شبَّ وكبر بدأ عمله بإظهار براعته الفنية والمسرحية فقد أنشأ حوالي عام ١٨٧٨ مسرحه في دمشق مع صديقه اسكندر فرج واتخذ من خان اسعد باشا في البزورية مسرحاً له زوده بما يلزم. ونظراً لعدم توفر العنصر النسائي جعل من الشبان من يقوم مقام النسوة الامر الذي أثار المعارضين له ولا سيما والده الذي هجره وقطع عنه المساعدة المالية عند ذلك لجأ الى خاله أبي أسعد النشواتي الذي أدناه من مجلسه واشترى له من وفره قباناً ليكتسب منه المال وأصبح منذ ذلك الحين يلقب بالقباني وكان يرصد ما يجنيه من صنعته للمسرح الذي أسسه، وقد كان خاله يعتقد ان إزالة صخرة كبيرة من مكانها اهون عليه من إزالة هذه العادة المتأصلة في نفس هذا الفتى النابغ العجيب.

وفي عهد ولاية صبحي باشا حضرت الى دمشق فرقة تمثيلية من فرنسا ومثلت في مدرسة «الفرارية» روايات

اجتماعية واخلاقية في باب توما وهي أقدم مدرسة لدينا تعلم الفرنسية. وكان القباني قد شهد هذه الروايات جميعها وأخذ فكرة عن المسرح والتمثيل والممثلين وتوزيع الادوار والمكياج فتمم بذلك ما كان ينقصه من فكرة التمثيل والمسرح وأمسى أكبر همه ان يؤسس مسرحاً في دمشق ويؤلف فرقة، بيد أ ن الذي عاقه عن ذلك فكرة ظهور الفتيات على المسرح وما يعتورها من طرق شائكة وصعاب وعقبات فالمرأة حبيسة بيتها حتى بدا ان يستبدل بالنساء الشبان المرد.

وقد نفذ القباني فكرته بنجاح واستمرَ في عرض مسرحياته التي لاقت اعجاباً كبيراً من الناس وعرض اول رواية وهي «ناكر الجميل» التي نالت نجاحاً عظيماً واتبعها برواية «وضاح» ولما أقبلت عليه الدنيا وابتسم له الدهر اخذ محلاً في خان الكمرك في العصرونية واقام مسرحه هناك في منتصف المدينة عندها استفاض الحديث في المنازل والمجالس عن عظيم مواهبه وسحر فنه وكثر رواد مسرحه وعشاق موسيقاه وتمثيل رواياته، وكان كلما تدفقت عليه الاموال ينفقها في سبيل تحسين مسرحه وجلب الحاجات الفنية الغامضة اليه ولما ولي الوالي فاضل باشا الذي لم يكن كالولاة من قبله الذين أيدوا القباني والذي كان مفكك الاعصاب يفزع من خياله، اغتنم خصوم القباني فرصة ضعفه واخذوا يدوسن اليه على القباني ومسرحه حسداً وغيرة، فوجدت وشاياهم عنده آذاناً صاغية وقلباً واعياً، فما كان من القباني إلا أن يُسكتهم بالمال والرشوة فأخذوا يطلبون المزيد لأنهم وجدوا هذا باباً للتكسب ولم يستطيعوا ان يصلوا الى ما يريدون فألفوا وفداً بقيادة ابن الغبرة الشيخ سعيد الذي يعتبر أشد خصومه عليه قسوة ونقمة وحسداً.

ركب الوفد البحر واتجه الى دار الخلافة العثمانية استانبول وقد قابل ابن الغبرة السلطان في (أبي صوفيا) وهو يصلي العصر واخبره بما يحصل في مسرح القباني وبما لا يحصل واصدر السلطان أوامره بمنع القباني من العمل واغلاق مسرحه.

عند ذلك اتصل القباني بصديقه في الاسكندرية التاجر الكبير سعد الله بك حلابو يستشيره بالشخوص الى الديار المصرية فجاءه الرد السريع يدعوه مع فرقته بالتوجه الى الاسكندرية على الفور.

اغلق القباني مسرحه ووجد خصومه الفرصة سانحة للنيل منه فأغروا به صبية الأزقة لشتمه وسبِّه وعمدوا ايضاً الى احراق مسرحه لكي يرضوا بذلك أهواءهم ورغباتهم.

وعند وصوله الى مصر عام ١٨٨٤م باشر في أعماله وقدم أربعة وثلاثين عرضاً في تلك الربوع ثم استدعاه الخديوي الى القاهرة وأكرمه وسمح له باستخدام مسرح الأوبرا سنة كاملة دون اي مقابل عندها كتب الى عائلته بالشخوص الى القاهرة وهنا تبدأ حياته المسرحية في مصر.

كان من الطبيعي لفنان يلاقي هذه المصاعب في فنه ان يترك بلده ويهاجر ولا سيما ان الناس متشوقون له فمصر كانت مسرحاً للفن حيث لاقى من يستقبله بصدر رحب استطاع ان ينشر فنه المسرحي ويطوره في ستٍ عشرة سنة وهو يجد من يصغي اليه باهتمام ويجد الرعاية من قبل الحكام المصريين. كل هذا جعل القباني يبتدع المسرحية الغنائية الصغيرة (الاوبريت).

كان حظ القباني كبيراً لأن لجوءه الى مصر صادف العهد التوفيقي الذي كتب له فيه النجاح والفلاح.

وبعد ان بدأ القباني نشاطه

المسرحي في قهوة الدانوب ومسرح زنوبيا اخذ ينهال بمؤلفاته المسرحية فقد قدم في هذين المسرحين زهاء خمساً وثلاثين حفلة قدم فيها مسرحيات (أنس الجليس) و(نفح الربى) و(ولادة) و(عنتر) و(ناكر الجميل) و(الامير محمود) و(زهر الرياض) و(الشيخ وضاح ومصباح وقوت الأرواح) و(الخل الوفي) التي ترجمت عن الفردوي موسيه و(عايدة) التي ترجمت عن الايطالية. وكان يتبع بعض المسرحيات بفصول مضحكة كفصل الصيدلة وفصول اخرى من التمثيل الايمائي (البانتوميم).

وقد نال بعد ذلك شهرة فائقة لاتقاس بها شهرة حتى غدا مسرحه كعبة القصاد وقبلة أنظار عشاقه وقد كان مسرحه مورداً عذباً يؤمه الأمراء والشعراء والأدباء لمشاهدة رواياته ومسرحياته.

ففنه لم ينقله عن لغة أجنبية انما ابتدعه من فكره وذكائه لأنه لم يشاهد المسرح سوى مرة واحدة عندما قدمت الفرقة الفرنسية الى دمشق كما ذكرت سابقاً.

انتقل القباني بمسرحه الى القاهرة واستأجر مسرح «بوليتياما» للتمثيل ومثل فيه إضافة الى مسرحياته السابقة (لباب الغرام) وهي مقتبسة عن راسين و(خمرة الحتال) من تأليفه، وبعد ان مثل في المسرح المذكور انتقل الى الاوبرا التي منحته إياها يد الخديوي ليمثل فيها سنة كاملة دون اي اجر وهكذا كان ينتقل بين هذه المسارح كل فترة ليواكب رغبات جمهوره الذي عشقه واحبه وقد مثل ايضاً مسرحيتين هما (عاقبة الصيانة وغائلة الخيانة) و(الانتقام).

ثم نجده يغادر مصر متوجهاً الى دمشق ليعود مرة ثانية ولديه فريق منظم من خيرة المشخصين والمشخصات وذوي الاصوات الرخيمة وفي اواخر اكتوبر عاد الى الاسكندرية بفرقته الجديدة وافتتح موسمه الجديد في مسرح قهوة الدانوب بمسرحية جديدة هي «مجنون ليلى» «وتياترو قهوة الدانوب» وهكذا ظل ينتقل بين المدن والاقاليم.

ولما طبقت شهرته الآفاق طلب للذهاب الى معرض في واشنطن ليعرض بعض رواياته ومسرحياته وركب مع فرقته البحر ولكنه أصيب بدوار فعاد أدراجه من ايطاليا وواصلت فرقته رحلتها فعرضت على زوار المعرض بعض مقطوعاته الموسيقية وبعض روايات كانت موضع تقدير القوم وإعجابهم.

لقد انتشر فن المسرح في مصر وكشفت اسراره فلجأ من كان يعمل معه الى بناء مسرح مستقل لنفسه الامر الذي جعله يفكر بالعودة الى بلده دمشق.

عاد القباني الى دمشق بعد ان نشر رسالة الفن في القطر الشقيق وكانت الحال قد تبدلت في وطنه وكان ذلك في عام ١٩٠٠م وكان الشيب يومئذ قد أشعل رأسه وكلل جبينه بهالة بيضاء من نور الشيخوخة ولم يجد في شخصه القوة والهمة على القيام بأي عمل فني فانقطع الى بيته وصلاته ونسكه وكان السلطان قد خصص له راتباً شهرياً من خزينة الدولة يكفيه وأولاده نظراً لما قدمه وظل على ذلك الى ان وافاه رسول القدر حيث كان ذلك في التاسع عشر من شهر (ديسمبر) كانون الاول عام ١٩٠٢ ودفن بمقبرة الباب الصغير وبذلك انتهت حياة القباني المسرحية التي اغنى من خلالها الفن والمسرح بموهبته العظيمة وتمثيله المميز.

المراجع:
- بواكير التأليف المسرحي في سورية، عادل ابو شنب.
- معجم المسرحيات العربية والمعربة.
- خطط الشام، محمد كرد علي.
- تاريخ المسرح السوري ومذكراتي، وصفي المالح.
- حركة التأليف المسرحي في سورية، أحمد زياد محبك.
- المسرحية في الادب العربي الحديث. محمد يوسف نجم
- بالاضافة الى مجلة الاهرام ومجلة الرسالة ١٩٤٨ أعداد مختلفة.

كاتبة الأطفال الأديبة دلال حاتم

الثقافة للطفل بمثابة كأس الحليب ورغيف الخبز

* على الجهات المسؤولة تحمل المزيد من الخسارة لانتاج كتب جيدة للأطفال
* حتى لايكون البطل مهمشاً الحوار يعطي للقصة حيوية

حوار اجراه :

تميم الحكيم

ندرة من الكتاب يستطيعون ان يخاطبوا الطفل.. ان يعرفوا ابجدياته.. ان يتعاملوا مع اهتماماته. ان يرضوا تطلعاته.. ذلك أن للطفل عالمه الذاتي.. ولغته الخاصة.. وخيالاته المتفرّدة..

وحوارنا هذا مع واحدة من هذه الندرة.. كاتبة مخضرمة ذات تجربة عريضة.. عملت في مجلات ثقافية ونسائية.. لتحط رحالها بعد ذلك في دوحة الطفل ولترأس تحرير مجلة (أسامة) للاطفال، التي تصدر عن (وزارة الثقافة) السورية لمدة تزيد عن ربع قرن.

فمع الكاتبة والقاصة السورية المبدعة الاستاذة دلال حاتم في هذا اللقاء..

البدايات

* (دلال كاتبة الأطفال) كيف كانت بدايتك ككاتبة؟

** بدأت رحلتي مع الكتابة والأدب منذ المرحلة الاعدادية.. كنت متميزة في كتاباتي من ناحية اللغة والفكرة والأسلوب، أو هكذا كان يقول اساتذتي الذين يدرسونني اللغة العربية، والذين وجدوا فيّ مشروع موهبة فشجعوني وفتحوا أمامي ابواب مكتباتهم الشخصية لأزداد اطلاعاً وكانوا يقرؤون ما اكتب ويصححون ويقومون..

وتوقفت تقريباً عن الكتابة خلال المرحلتين الثانوية والجامعية.. لأن همي كان في الحصول على الشهادة..

وبعد التخرج من الجامعة عملت في (وزارة الثقافة) وعدت الى الكتابة مجدداً، حيث كانت لي زاوية اسبوعية في الصحف المحلية.. ثم عملت كمحررة في مجلة (المعرفة) التي تصدرها (وزارة الثقافة) ثم ساهمت في اصدار مجلة

(المرأة العربية) التي يصدرها الاتحاد النسائي.. بعدها جئت الى مجلة (أسامة) واستقريت فيها حتى الآن..

المعرفة تثري

* اختصاصك الجامعي.. هل أثرى تجربتك الكتابية؟

** لأني كنت متمكنة في اللغة العربية، فقد نصحني بعض العارفين باختيار فرع آخر فاخترت دراسة التاريخ.. ولم تكن تقتصر على دراسة التاريخ السياسي وانما كانت تشمل ايضاً تاريخ الفنون والآداب والحضارات والفلسفات ثقافة عامة جيدة جداً.. ومن خلال هذه الدراسة تعرفت على التراث العربي.. فتعلقت به وما أزال.. كل ذلك زاد من معارفي وأثرى تجربتي الكتابية.

الكتابة للطفل

* وماذا عن بداية مشوارك في الكتابة للطفل؟

** عندما جئت الى مجلة (أسامة) لم يكن عندي أية فكرة للكتابة للاطفال.. أتيت بحكم وظيفتي.. فوجدت نفسي ملقاة في البحر وعلي أن أسبح.. فبدأت بمطالعات جدية ومكثفة لما يصدر للاطفال.. تعرفت كيف يكتب الكتاب.. وما هي الافكار التي يطرحونها.. ثم تعمقت في دراسة علم نفس الطفل لأتعرف على القارىء الذي أريد أن أتوجه إليه..

في البداية اقتصرت على الترجمة عن الفرنسية.. ثم تشجعت وبدأت اكتب نصوصاً خاصة.. بالطبع لم تكن جيدة جداً لكن كبدايات كانت مقبولة.

من خلال الممارسة والاستمرار والمطالعة طورت لغتي وأدواتي.. استطعت أن أجد لغة أخاطب بها الاطفال.. أن آتي بكلمات تصل اليهم وتعبر عما يجول في الخاطر.. وهو أمر ليس بالسهل.. وهكذا صار لي أسلوبي الواضح في الكتابة.

ومع ذلك فإنني لم أكن واثقة من مقدرتي.. لأن النقد بالنسبة لأدب الاطفال شبه معدوم.. ولكن عندما اعلنت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم عن جائزتها السنوية في أدب الطفل، عام ١٩٨٥م تقدمت اليها مع نخبة من كتّاب الاطفال من مختلف انحاء الوطن العربي.. وعندما فزت بالجائزة تأكدت انني اسير على الطريق الصحيح.. وتواصلت كتاباتي حتى صار عندي الآن اكثر من (٢٢) كتاباً للاطفال.. اضافة الى مجموعتين قصصيتين للكبار.

لكل نص قيمة

* يلاحظ في بعض قصصك انها تضم معلومة للطفل.. فهل يجب ان تكون قصص الاطفال كذلك؟

** ليس دائماً.. المهم أن يحوي النص قيمة ما.. قيمة تربوية، اجتماعية، علمية، تعليمية.. الخ.

ففي بعض قصصي اتجه في هذا الاتجاه اقدم المعلومة العلمية داخل النص ليتعرف عليها الطفل ويتعلمها.. وهنا تأتي اهمية دور الكاتب في توثيق المعلومة العلمية بالنسبة للطفل.. وهنا ايضاً يجب أن يكون الكاتب متعدد الثقافات.. أنا عندما أريد أن أتحدث عن حيوان ما يجب ان أعرف طبيعة هذا الحيوان.. ولا اذكر له صفات ليست فيه حتى لا يجد الطفل نفسه في اتجاهين.. ما يقرأه في الكتاب المدرسي مثلاً وما يعطيه اياه الكاتب..

المعلومة العلمية ليست ضرورية في كل القصص.. ولكن هي واحدة من الاشياء

التي يجب أن يتقنها كاتب الاطفال.

التاريخ

* التاريخ.. كيف نصوغه لأطفالنا؟

** نحن نريد للطفل ان يدخل الى المستقبل.. على ان تكون له جذور ثابتة.. وهذه الجذور هي في تراث أمته سواء العقدي أو الحضاري أو السياسي..

وللتعامل مع التاريخ سبل كثيرة.. ففي تاريخنا العربي والاسلامي شخصيات بارزة كانت لها بصمات واضحة في الحضارة الانسانية العالمية.. وفي تاريخنا معارك كبرى وملاحم خالدة لها اهميتها الخاصة.. كل ذلك يمكن ان نقدمه لاطفالنا من خلال أدب الطفل..

ونحن نقدم له هذا التراث إما بمعلومة علمية عن عالم في الطب مثلاً أو كاتب أو أديب نعرف بكتاباته.. أو نأخذ من التراث ونقدمه للطفل بلغته ونقول هذا عن فلان..

فقد أعدت صياغة الكثير من قصص (البخلاء) للجاحظ، وقدمتها في مجلة (اسامة)، وأشرت الى أن هذه النصوص من كتاب (البخلاء) للجاحظ الأديب المعروف.

قد نجد مثلاً قصيدة جيدة للمتنبي أو لأبي تمام ننشرها ونشير الى ان هذه القصيدة للشاعر فلان من العصر الفلاني..

وفي معارك التاريخ قصص مختلفة.. واذا كان الكاتب ماهراً يستطيع ان يحول النص السردي الى مجموعة صور توضح معركة ما..

الحوار أكثر تأثير

* أترين ان الحوار اكثر تأثيراً في الاطفال من السرد؟

** هذا يتبع طبيعة القصة.. وإني أرى أن الحوار يعطي للقصة حيوية.. القصة السردية تحس ان ابطالها صاروا مهمشين اما عندما يتحدث ابطال القصة فيما بينهم فإنك تشعر بحرارة اكثر للقصة.. ويمكن أن يستفيد الاطفال من القصص بتحويله الى مشاهد تمثيلية يؤدونها..

الترجمة

* الترجمة للطفل لها وعليها.. ماذا ترين في قضية الترجمة للأطفال؟ وهل ترين أنها تناسب اطفالنا؟

** الترجمة لا بد منها.. فنحن لا نريد لطفلنا ان يبقى منغلقاً على نفسه وعلى عالمه الصغير.. يجب أن يقرأ ما يكتب للاطفال الآخرين.. لكن هنا يأتي دور المسؤول في الانتقاء.. هناك بأي مكان في العالم قيم تربوية توجه للاطفال كالصدق، والأمانة، وحب الوطن.. وغيرها.. ونحن عندما نلجأ الى الترجمة يجب أن نختار مادة اذا قرأها طفلنا يخرج منها بهذه القيمة.. على الا تكون مفرقة في محليتها.. كما أن هناك تراثاً حضارياً للكثير من الشعوب.. هذا التراث يجب ان يتعرف عليه الطفل لأنه تراث إنساني وليس ملكاً لشعب أو لأمة.. وكما أنهم في أوروبا يأخذون من تراثنا العربي والاسلامي وينقلونه الى اطفالهم، ولكن بطريقتهم الخاصة.. فإن علينا أن نأخذ من الآخر ولكن بحذر وبشرط أن تكون هناك قيمة واضحة في النص تناسب طفلنا.

مواهب واعدة

* هل تحاولون في مجلة (اسامة) اكتشاف مواهب الاطفال الواعدة؟

** نحن نفرد صفحات في المجلة لما يكتبه الاطفال.. وسبق أن اصدرت وزارة الثقافة السورية كتاباً ضمّ كتابات

الاطفال التي وردت للمجلة، بعد انتقاء وتصحيح للغتها.. وهذه الكتابات شعرنا أنها نابعة من الطفل وليست نقلاً.

ولكن من المؤسف أن كتابة الاطفال تتراجع الآن .. بشق الأنفس نستطيع أن نجد شيئاً جديداً.. يرسلون إلينا طرفة، فكاهة، معلومة، أقوال مأثورة.. هذه ينقلونها نقلاً.. أما كإبداع فمع الأسف هناك تراجع في ابداع الاطفال، وهذا راجع لعدة اسباب من ابرزها انهم لا يقرؤون كما كانوا في السابق.. فقد سرقت الوسائل التقنية الحديثة من فيديو، وقنوات فضائية، وكمبيوتر، وأتاري.. سرقت الطفل فانصرف عن الكتاب.. وصار قليل القراءة.. والتراجع في القراءة يؤدي الى التراجع في العطاء.

استطلاع

* وهل تحاولن استطلاع رأي الصغار فيما يكتب لهم الكبار؟

** في مجلة (أسامة) نجري بصورة مستمرة استبيانات لنتعرف على رأي الاطفال فيما نكتب لهم .. اذكر ثلاث قصص اعجبتك.. اذكر ثلاثة مسلسلات اعجبتك.. اذكر ثلاثة رسامين تفضلهم.. اذكر اسماء ثلاثة كتاب أنت معجب بهم.. وقد لاحظنا أن الطفل يهتم بالنص الذي يصله، وبالصورة، ولكن لا يهتم بالاسم.. لكن هذه الاستبيانات تساعدنا في معرفة توجهات الاطفال، وتعديل مسارنا بما يتفق واهتماماتهم.

أمنيات

* في الختام.. الى ماذا تتطلعين؟ وماذا تتمنين؟

** الطفولة هي المستقبل.. وهي الامل.. وانا اسعى جاهدة ان أحقق الذي لم يستطع أهلي أن يحققوه لي.. ليس لأطفال بلدي فحسب وإنما لأطفال الوطن العربي بأسره الذين اعتبرهم كلهم ابنائي.

اتمنى ان يكون هناك دعم اكثر وتشجيع اكبر لثقافة الطفل لان الثقافة بالنسبة للطفل بمثابة كأس الحليب ورغيف الخبز.. فهي حاجة هامة وضرورية جداً.

اتمنى على الجهات المسؤولة - مادامت تعتبر الكتاب مهماً للطفل - ان تتحمل المزيد من الخسارة لانتاج كتب جيدة للاطفال.. وان يباع الكتاب بأقل من تكلفته حتى يظل في متناول الجميع..

أتمنى ان يزداد عدد الكتاب الذين يكتبون للاطفال لان عددهم قليل جداً جداً وليسوا جميعاً على سوية واحدة.. حتى هذا الكم القليل هناك الجيد وهناك الوسط وهناك المتواضع الانتاج..

وأتمنى من الكتّاب الذين يكتبون للاطفال ان يطوروا من اساليبهم في الكتابة وفي الافكار وان يواكبوا العصر.. نحن الآن في عصر الكمبيوتر والدشات.. وبين يدي الطفل الكثير من الوسائل الحديثة.. فيجب ان نفكر بعقلية الطفل الآن وليس بعقلية الطفل قبل عشر سنوات.

وأتمنى ان تحتضن الجهات والوزارات ذات العلاقة كتاب الاطفال.. ان ترعاهم وتشجعهم على الكتابة باحداث جوائز سنوية لافضل كاتب. مما يساعد على المنافسة ويزيد من العطاء.. ويوفر لاطفالنا ما يحتاجونه من أدب نافع يمتعهم ويربي اخلاقهم واذواقهم.

* * *

شاعرة الألم والإيمان

هند هارون

في حديث لها قبل وفاتها

غيابُكِ لا يصوِّرُ في بيانٍ
لأنَّ الموتَ سرُّ اللّهِ فينا
غيابُكِ رحلةٌ في سرِّ غيبٍ
وراءَ الظلِّ يختَصِرُ السّنينا

* * *

الموت هو يقظةُ الأبديّة كما تقول الشاعرة العربية هند هارون. وقبل أن ندخلَ إلى دراسةٍ بعضِ الجوانب من لغتها الشعرية الفنيّة. سوف نرى حياتها وتجربتها ورحلتها في سماء الشعر وعالم الخيال وأرض الواقع من خلال حديثها المطوّل. فهي أعلم وأدرى في حياتها وعالمها هنّا، وذلك من خلال السؤال الموجّه إليها عام ١٩٩١ ولم ينشر في جرائدنا إلاّ لهذه المرّة.

سئلت مرّةً: أنْ تكوني شاعرة، ماذا يعني هذا بالنسبةِ لكِ؟

فأجابت: هل سبحتَ في بحارٍ نوارانيةٍ، هل غُصتَ على اللآلىء في محارها.. هل ساهرتَ نجمةً بعيدةً يلامسُ شعَاعَها رفيفَ قلبكَ.. وسرحتَ مع عظمةِ الخالقِ المتجليّةِ في خضرةِ المروجِ. في قطرِ الندى على الرياحين، والثلوج على ذرى دمعة تبرقُ في عين الطفولة.

هلْ شفّتْ روحُكَ حتّى الوجد الإلهي. وسطّرتَ دموعَكَ حروفاً تتوهّجُ على الورقِ؟ هل سُعدتَ بزحزانكَ، وشقيتَ بأفراحكَ.. ثمَّ تجاوزتَ حدودَ الفرحِ والحزنِ في مدارٍ اكبر منهما معاً

هلْ كتبتَ في حالةِ الشعورِ واللاشعورِ؟ لا لِتُقْرأ أو يقالُ عنك شاعر مبدع.. بل لتحوّلَ طاقات انفعالكَ إلى كلمات..

إذا كنت هذا.. أو بعضاً منه.. فأنتَ الشاعر

*** مراحل حياتها وتجربتها الشعرية**

تقول: هند هارون ملخصةً مراحلَ حياتها وتجربتها الشعرية:

ولدتُ في اللاذقية في الثلاثينيات من أسرة مناضلة قاومت الاحتلال الفرنسي. حيث تعرّض عمي مُنَح هارون للحكم بالاعدام وهو أديب وشاعر وبعض أقاربي للنفي او الاعتقال. كما صودرت أملاك والدي نديم هارون من قبل المستعمرِ كان الموتُ أولَ مؤثّرٍ في حياتي طُبِعَ في مخيلتي. حيث حملوني طفلةً في السابعة لأودّعَ أبي المدرج بالأكفانِ .. كانت ظاهرةُ الموتِ صدمةً أفقدتني الوعي.. حيثُ أصبتُ بالاغماء وتركتْ في نفسي رهبةُ الموتِ. وقد ظهر ذلك جلياً في قصيدتي (حوار الجراح) وتتالت الأحداث..كنتُ في المدرسة طالبةً متمرِّدةً على الادرارة الفرنسية احرّضُ على الاضراب ضد الاحتلال. وأُفصلُ أحياناً من المدرسة وأعاقب.

في هذا الجو بدأتُ أقرضُ الشعرَ. وأسجِّلُ تلك المشاعر واذكر أنني كتبتُ قصيدةً عنوانها (وطني) رفضتْ الأنظمةُ نشرها أنذاك كما نظمتُ قصائدَ الحبِّ الصغيرة. أسميتُها (المؤودات) ولكنني ألمس فيها الآن مشاعر مخيِّلةٍ. بريئةٍ، محيّةٍ.

كنتُ أقرأ كلَّ ما يقع تحت يديَّ من كتب عربيةٍ وفرنسيةٍ.. تأثّرتُ بالتراثِ الإسلامي والعربي مما أغنى ذخيرتي اللغوية. ولكن المصدرَ الأجلَّ والأعظم كان القرآن الكريم ومحاولتي فهم ما تحمله اياته البيّنات..

*** الأمومة**

أمّا الأمومةُ فلها حديثٌ خاصٌ وانعطافٌ إنسانيّ، يمثل صور الحياة بمعانيها الاسمى والابقى..

الأرض والانسان. سرُّ الوجود. تأملات. كَبُرت في ضميري بعد موت وليد الوحيد (عمّار) في الربيع السابع عشر. لأشعر أنّنا في هذا العالم اللامتناهي ذرّة صغيرة على خارطة الإنسانية وأنّ رحلتنا تبدأ حيث نظنُّ أنّنا انتهينا..

وتتابع الشاعرة الأم.

توصلتُ رلي هذه القناعةِ بعد رحلةٍ طويلةٍ من عذاباتِ الأيام وجزع الكبد. وحزن الشموس وقبل الحديث عن تلك الأمومة. أقفُ حائرةً أمام حقيقة الحقائق. وقفة الصوفي المتجهّد وقفة خشوع حتى الوجل. بل وجل حتى الأمان وأمان يطمئن النفوس الحائرة.. حيث يصعد الروح من عتمة الليل الى شموس لا تغيب.. حيث ينسى المتهجّد ذاته ذائباً في اللّه من شفيف الوجدان. مُبحراً الى خالقه..

أشرعتُهُ الإيمان المدرك. والادراك المؤمن محاولاً غاية الفهم ليكون وصل وأنتمٌ مع الأبجديّة الكونية يُحي صلاةَ القلب، في رحابِ الإسلام بنفسٍ تقيّةٍ. وينقّي روحه الظمأى للمعرفة.

لا أدري لمَ جذبني الحديث الى عمق الروح لا إلى تسلسل مراحل حياتي.

فأنا في الحقيقة، أعيش بساطة التعبير ولستُ في مراتب الصّوفية.. أسميتُ نفسي (طفلة الآلام) حيث الرضى

بالمقدّر. وشمولية الإحساس. والإندماج مع قهر المعذّبين والتفكّر بعظمة الخالق. بالمطلق.

كلّ هذا جعلني اكثر عمقاً في كتاباتي ومنها (حكاية الأرض والانسان) (وهج البردة) (من وحي الاضواء) وتعود بي الذاكرة الى الماضي فأرى طفلةً أقسمت أن تحيي عَلَمَ بلدها مرفوعاً فوق دار الحكومة.. وأرى نفسي أنظر الى العلم بألوانه الأربع هاتفةً:

عش هكذا في علوٍّ أيّها العَلَمُ

فينهض معي الناسُ في يوم عيد الفطر ويعود أبي الي البيت ليحدّث عن طفلة هزّت المشاعر دون أن يدري أنها ابنته. واشعر أنذاك بالخوف ثم الفرح لاحتضان الوالد المعتزُّ بطفلته الصغيرة ولعلّها آخر صورةٍ له قبيل وفاته قلتُ: إنّ اسرتنا تعرّضت وعانت من الاستعمار النفسي وبعد مصادرة أملاكنا عشنا في ضائقةٍ ماديّة. وكبرياء معنوي.

كتبتُ الشعر القومي.. وتحدّثتُ عن قضايا الوطن العربي، وتغنيتُ بالوحدة العربية.

وقد فرضت الأحداثُ نفسها عليّ كشاعرةٍ تحسّ أنّها ذرة من تراب بلادها.. فتفاعلتُ مع الاحداث الذاتية والقومية. حيثُ تحاك المؤامرات ضد العروبة والاسلام معتمدة على أداةٍ اسمها الصهيونية.. وذلك لتمزيق وحدة العرب والمسلمين.

فكتبتُ قصائد كثيرة. منها.

(نداء الأرض)، (الشهيد)، (نداء الحرية)، (خيمة لاجيء).

عملاً بسنّة الكون تزوّجت المهندس المؤمن الشاب أحمد رفيق قريعة، حيث اكتنف اسرتنا الصغيرة الاستقرار.. وتوّجت هناءتنا عندما رزقنا بعمّار.. وصرتف أمّاً..!!

ولكن أي أمٍّ

*** شاعرة الأمومة. خنساء اللاذقية**

ما كدتُ أنعمُ بالوحيد.. حتّى فاجأهُ المرض وهو في الرابعة من عمره.. وبدأت رحلة العذاب، مع عمّار.. عمارُ البسمة والدمعة.. عمارُ الشروق الذي تحوّل إلى شروقٍ أبديٍّ.. عند الباريء وألماً منسكباً في الشّرايين بالكلمات.

عمّار التجربة المتفرّدة التي عشتُها، فجرت في كلّ ذرةٍ من كياني، من كلُّ نبضةٍ، من كلّ نسمة.. نسمتها رئتايَ.. من كلُّ رعشةِ خوفٍ على الوحيد.. فجّرت شعر الأمومة. عذابات أم.

ترى وحيدها يتأرجح بين الحياة والموت.. فتموتُ وتحيا كلٌّ يومٍ مراراً..

وبعد يمضي عمّار تاركاً خلَفُه أمّا أذهلها المُصاب.. من كلّ هذا تفجّر شعر الامومة أناشيد قلبٍ مجروحٍ.. ولوحات متفرّدةٍ ربّما كانت الإضافة الكيفيّة علي ساحة الشعر العربي وهكذا لقّبتُ بشاعرة الأمومة، وأحياناً بخنساء اللاذقية وها أعترفُ أنّ الخنساء شاعرة الرثاء ربّما دون منازع.. قدّمت أبناءها الأربع شهداء في سبيل اللّه.. فيا بشراها.. ولكنّها لم تمرُّ بعذابات الأمومة.. لم ترَ دمَ وحيدها يتحلّل ليصبُ في عروقه دمُ الآخرين.

كتبتُ قبل رحيل عمّار قصائد منها. (وصيّة أم) (يا أمّ يا عذراء)، (يا

وحيدي)، (رلى ولدي).

وبعد الرحيل.. صدر ديوان (عمّار) بغلافه الاسود وعين تملأ البحر دموعاً.. وقلب يتفجّر بين الضلوع قدّم له الدكتور أسعد علي.

برسالة حميمة إلى الشّاب الراحل اى عالم البقاء. وتحدّث عن شفافية الروح رسمتُ أحزاني لوحات مستوحاة من صور كانت تزيّن غرفتهُ، وتحدّثني عنه. من أولى قصائد الديوان (المقعد الخالي)

المقعدُ الخالي يسائِلُهُ الرّفاق.. ولا مجيب
الغرفة الحيرى تقول بحرقة (رحل الحبيب!)
الأسطر البيضاء ذاهلةٌ.. تظلُّ بلا رقيب
مَنْ ذا يخطُّ حروفها.. بذكاءٍ متّقدٍ عجيب

* * *

ثم أناشيد الأمومة.. وتمرّ الأيام ويتعمّق الإيمان في قلبي وتتحوّلُ الفاجعة من أنانية أمٍّ الى إحساسٍ بأن ما أعانيه هو ذرّةٌ من الام العالم الكبير.. وأصبحت أمومتي انتشاراً في الأرض.. بين الأطفال المعذّبين في لبنان في افريقيا.. في طفل المقلاع وكتبتُ الكثير لأطفال الحجارة.

لا أعلمُ أنّ هنالك شاعرةً صوّرت أدق مشاعر الأمومة كما فعلتُ ولكنني أعلمُ أنّ هنالك الأمهات المؤمنات الصابرات اللاتي فقدن أبناءهنّ في الجهاد في سبيل الله وربما كنت أنا قصيداً عن أحاسيسهنّ من خلال تلك الرحلة الطويلة، رحلة العذاب. اليتم. القهر. الأرض. الوطن. الثكل. رسمتُ ملامح شاعريتي شعراًوجدانياً صرفاً فيه الحبّ غيريّةٌ خالصةٌ إنني انسانةٌ، قد أتعرضُ للضعف، فأتغلّب على ضعفي، وقد أظنّني قويّةً فيغلبني وهني وقد قالت الشاعرة منى الخير في بحثها عن الحبّ في شعر هند هارون.

(إنّها تحتضنُ نواة الحبّ وتفجرها في ذاتها، كما تتفجّر الذّرة فتحوّل الى طاقة لا متناهيةٍ من الحبِّ.. ويدور صراعَها العاطفي مع الزمن دورةً كاملةً لتلتقي شعراد الصوفية الكبار) أشكر الله لأنّ الإيمان رسم لي الطريق وأسلمتُ أمري للباري وعرفتُ أنّ الحياة عبور من حلمٍ مؤقتٍ الى يقظةٍ أبديّةٍ وأحسُّ أنّ (طفلة الآلام) الكامنة في أعماقي قد تحوّلت الى إنسانةٍ مدينةٍ للحيِّ القيوم بهباتِهِ. وإنَّ عليها تسديد الدّين.

وهكذا كتبتُ (فراديس الروح) يوميات قلب في رمضان - (الأمومة والحبّ) - حكاية الأرض والإنسان وغنيتُ الإمام الحسين عليه السلام قصائد وجدٍ قدسيٍّ وحزنٍ أبديٍّ. كما زكرمني الله عزّ وجلّ بكتابة (وهج البردة) أعارضُ فيها البوصيري وأحمد شوقي معبّرة عن الإسلام بصدقٍ عفوي وعن عظمة الرسالة والرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم وكما تشرّفتُ بنظم (ملحمة الإمام علي) عليه السلام درّةً ثمينة في شعري.

وبعد زرى من الواجب والاعتراف بالفضل أن أنوّة بما كانَ للعلامة الكبير الدكتور أسعد علي من آيادٍ بيضاء في دفع مساراتي الشعرية وهدايتي إلى التمسُّكِ بحبال الرحمن. وقد حثّني على إخراج شعري إلى النور. على طباعته كما جعل منه موضوع رسالة ماجستير في جامعات لبنان.

مباركة بنت البرّاء وجديلة (ترانيم لوطن واحد)

بقلم:
وديع ملحم العريضي

«مباركة بنت البرّاء» أديبة وشاعرة «موريتانية» مميّزة، لها مجموعة مولفات في البحث، والقصّة، والرواية، وقصص الاطفال. منها دراستيها: «المرأة في المجتمع الموريتاني» و«البناء المسرحي عند توفيق الحكيم».

وفي الرواية: «العبور الى الجسر الآخر» و«الرقيب» ثم قصصها القصيرة: «الأظافر الحمراء» و«حكايات جدتي» قصص للاطفال.

تشغل منصب «مستشارة بوزارة التنمية الريفية» بنواكشوط. ومفوضة التنظيم «لرابطة الادباء الموريتانيين». لقبها المعروف به: بَاتٌ بنت البرّاء».

من اعمالها الشعرية ديوانها: «ترانيم لوطن واحد» الصادر عن المطبعة الوطنية بـ٩٦ صفحة من الحجم الصغير.. يشتمل على عشرين قصيدة مختلفة التكوين ـ والتوقيت.. منها ما نُظمَ ببضعة سطور.. ومنها ما جاء بمجموعة صفحات، أنجزت على مراحل زمنية متفاوتة..

إلا أنها بمجملها تناولت الهمّ القومي.. وعالجت قضايا المرأة.. والانسان.. والارض.. بشفافية، ورقّة، عبّرت عن مدى رهافة مشاعرها، ونبل احاسيسها.

قدَّم ديوانها الأديب الناقد «سد أحمد ولد الدي» وكتب له قراءة اولى الدكتور «احمد بن السيد».

بداية، اترك الشاعرة تعرّف قصائدها بقولها:

«قد تكون اختراقاً لما ألِفوه من خصوصيّة الشعر في مجتمع رجولي، ولكن ليسمحوا ، لو عرفوا مدى حبي هذه الأرض لعذروا، ولو دروا فرط حساسيتي

لتقبلوا».

تستشهد مناجية وطنها مناجاة عاشق، كأنما استيقظ من عمق الزمن الأزليّ، ليبعث نفحة حنين، ورؤيا جمالية مشرقة من باطن التكوين الى المعشوق الاكبر:

«أحببتُ فيك نسيم الليل متحدا/ بناظريك، وموج البحر لألأ/ ص٣

نقف على صدق مشاعرها حيث تسترسل تصف قصائدها:

«فيها من زحف الرمال الهوج، وهوس الرياح العاتية، وخربشة الاوراق الذاوية في ليل البادية، ودموع الحزن العربي. فيها رغوة اللّبن ساطعاً من الحلاب/../ هي كلمات رحبة لطفلة يتيمة الاصابع، ظلّت تهيم على تلال قريتها الصغيرة، تخبز الرمل جمالاً، ثم ترنو الي السماء مفتونة بالأزرق الغامض كلما حاصرها الزوال» ص٥.

تسترسل الشاعرة وتسترسل.. لنشهد بحق صدق مخاضها.. حين تلد مقدمتها التي جاءت قصيدة نثر مجنّحة على أثير الروح الخافق من بدَع الوجدان.. ثم لتحبك عقدها اللؤلويّ بعشرين حبّة متناسقة الجمال.. متفاوتة التكوين.. تتهادى على إيقاع أوزان مختلفة الالحان..

انها رسالة ابداع سماويّ مسّت شفافيّة موهبة برقَ وترها حين لامس شغف روح ساهمة الى ما ورائيّة محسوس.. فغردّت أنغام وجدٍ.. وصدحت، سمفونية.. حركت أوتارها تهاويم تماوجات خالدة نابعة من عمق أحاسيس تعلن حكاية بعثٍ لذبذبات صدى وجود!

انها حكاية ولادة «ترانيم لوطن واحد».. انها حكاية تطويب «مباركة بنت البرّاء» شاعرة تبعثر الألوان صوراً جمالية، لتضف لوحة فاتنة التناسب الى مرسم «عبقر» في متحف ابداع الحسّ العربي!..

هزّتها تهاويم البؤس مترنحة مع عواء ريح تعبث بكوخ يستجدي الأمل حلماً تعلله «بانتظار»..

انه انتظار الفرج الآتي من البحر محمولاً على باخرة الوعود:

«تهدهد الأم وليداً عضّه الدهر بنابْ
يحكون عن باخرة تمخر في العباب
وتحمل الأطنان قمحاً وزيوتاً وثياب
ص٣١

خلال رحلة شقاء الانتظار تجنح الباخرة الى ما غير عودة.. ليترعرع الأمل مجدداً حلماً يأتي بفرج السماء:

«ونضبتْ دموعها فانقشع الضبابْ
وهدهدتْ وليدها
ترى أيمطر السحاب» ص٣٣

عشقت الارض سمرة.. فتعلّمت عشق كل ما صُبغ بالسمرة..

استعرضت ملامح التشتّت العربي «من مذكرات مسفر»:

وإنّ بيتي بيافا دارس طلل
وإنّ طفلي «بصيدا» مضرب حزن
ص٣٨

لكن الشاعرة آمنتْ بانتصار آتٍ بقيامة وطن موحد.. تفشي سرّها المتحديّ:

وان أمّي لو يدرون ما فتئت
تكرّر القول أن موتوا ولا تهنوا
فلا وربّي فلن نُغتال ثالثة
انّ الرّجال بحب الأرض تُمتحن
قصيدتي اليوم شيء لا حروف له
عروضها الحبّ والايمان والوطن
ص٣٨

تنطلق الشاعرة الى «خيمة عربية» فوق الرمال السمر تبثها حنينها. تعلن اشواقها من خلال «المربد الثامن» لتبعث «تحية الى بغداد» ثم تعرّج الى «رمل ونهر» تلوّن أحلامها بخيوط وحدة دجلها وفراتها.

يتّحدان برحلة شوق مع (نيلها) ليتم تزاوج لا انفصام فيه ينعقد برباط ربع الصحارى.. ليبعث البهجة انتصاراً «ويتحدث الشيخ الحافظ» ليعلن «تحية الثامن مارس».

«لماذا» لا يتم ذلك الحلم؟!..
لماذا أغني وصوتي نحيب؟
لماذا أغنّي وأرضي تباع؟
لماذا وطفلي، يعاف الهدايا، ويبغي السلاح؟ ص٥٢-٥٣

يصهرها الألم حتى الاختناق، تعلن نزف «القلب الجريح» ويدور بها «مدار» الى سمرة العشق.. الى نداء الارض.. الى صرخة الانتظار.. الى وطن الرجال:

«تحدّيتُ باللتحدّي..
تغلغلتُ في كلّ فكر جواباً يحيّر السؤال..
لأنك وحدك تعرف كيف الرجال
وأين الرجال
لأن لشعبك طاقة حب تفوق الخيال.
ص٦٣-٦٤

ومن «سبأ الأساور» الى «القافلة» السائرة تروي عطش الصحراء بالدم.. ترقّ الشاعرة لتبصم «ترسيمات على الوطن الأم» تشفّ حتى الاسترخاء بلحظة «تأملات» تطلق بعدها «ثرثرة غائرة». تهتدي لحقيقة ثابتة تعلنها صيحة صادقة «أريد»:

أريد لشعري يغنّي كياني
أريد لسيفي يروّي حصاني
أريد من الحرف صحراء قيظ تتوه عليها الوعول، تضاربها الريح،
تثقبها الشمس، فيطلع منها الجواد الأصيل!
لتهتف عبلة أنّ الزمرّين خيرا
وأن بكارتها ستظل
حتى تعانق عبس ذبيان..
وقحطان عدنان

ص٧٨-٧٩

انها صرخة جبارة تطلقها الشاعرة «مباركة بنت البرّاء». تحثّ بنات جنسها أن يمتنعن على الرجال حتى يتم عناق الوطن الواحد من المحيط الى الخليج..

تستيقظ على «أنشودة الحجر» تغنّي «لعينيكَ اي زسمراً عربي» ترسم القدر الآتي «ملامح وجه» يعلن ارفض.. ترتعش شرايينها بلمعات «خواطر» تعيش لحظة «سأم» تطردها.. لتنتشي بخيال عودة الى «حلم الطفولة».. تعلن انقضاء زمن الخنوع.. تضجّ عروقها رغبة .. تقبل الى الحياة باشّة بانتطاراتها.. تهتف:

رتّلتُ سفر الحبّ في قدسيّة
فكفرتُ باتأنيب والتوبيخ
هدّمتُ أركان المعابد كلّها
فقضى «كرادلتي» وفرّ شيوخي
وبنيت بالأنقاض أعظم هيكل
أطلقتُ فوق سمائه صاروخي
ص.٩٠

أترك الدكتور أحمد بن السيد يختصر التعريف بديوان الاديبة «مباركة بنت البرّاء» ليعلن:

«تسيطر فكرة الرجعة الى الجذور التليدة، والانطلاق الى حدّ الاستحالة.. فالصمغ، والنخل، والرمل، وأطناب الخيام، وأحاديث الرعاة، وهموم المجتمع، والقضيّة الكبرى، تندغم كلها في انسجام بديع وباسلوب خلاق لتولد ذلك الرجع الرائع الصدى «ترانيم لوطن واحد»».

في رحاب الأدب السعودي

الأديب الفنان
الأمير خالد الفيصل
في عيون الأدباء

بقلم:
تميم الحكيم

* فارس الإبداع.. وبطل الريادة.. وعنفوان العطاء.

محمد عبد الله الحميد

* تجلي في رؤوس الأشجار بمنطقة عسير.. ولحن حب فوق هضابها.. ودرع واق لوطنه.. وسيف بتار فوق طويق وآجا وسلمى.. تعبير صادق صدق واقع المنطقة.. وحضور متواجد لشتى المجالات.. نفس أبية.. وبسمة عريضة.. وزكاوة في النفس.. وعذوبة في الكلمة.. محبة للكبار، ورفق بالصغار. جعل من عسير منطقة السياحة الاولى في المنطقة.. أعمال خيّرة.. وأقلام ترعف بعبارات شعر رائع.. هذا هو حفيد صقر الجزيرة خالد الفيصل.

محمد عمر عرفه

* شاعر به معين الشعر في العاطفة والتعبير.. لا يقل في خيالاته الشعرية عن خيالات الشاعر عمرو بن أبي ربيعة، وبشار بن برد في غزلياته.. أما في حماسياته فلا يقل عن جرير والفرزدق معاً.

يحيى المعلمي

* نابغة في الإدارة.. وفي الشعر.. وفي الأدب.. وفي الفن.

علي أبو العلا

* صاحب كلمة مبدعة وصورة مهذبة متميّزة.. وشعره يصدر من نفس إنسانية عالية.

مصطفى زقزوق

* أمير في شعره. وشاعر في أمارته.. مبدع في ريشته.. وفنان مرهف في التعامل مع كل ما هو إنساني.

د. حمود أبو طالب

* الإنسان والفنان الذي ملأ الوجدان بالشعر الجميل.. وملأ النظر بلوحات تشكيلية تشهد بحس فنان متفوّق.. رعايته للفن والثقافة والإبداع مشهودة ونابضة على الدوام.

د. عبد الله باقازي

* رجل كبير.. وإنسان متميّز.. والرجولة عمار الخلق الفاضل.. ولإنسانية عماد الشعر العظيم.

قينان الغامدي

* شاعر موهوب ينشد الشعر بصورة تلقائية.. وفنان تشكيلي بارع.. وإداري متمكّن من فنون الإدارة.. حكم منطقة عسير فأضاف الى جمالها جمال، ومنح بهاءها المزيد من البهاء.

د. عبد الوهاب الحكمي

* أمير فنان.. وشاعر موهوب.. شغل الخليج بإبداعاته الفنية في مجالات الشعر والأدب والفن التشكيلي.

أحمد فتحي عامر

* فنان القلم شعراً، والريشة رسماً.. وعقل واع ومستوعب للحياة في مركز القيادي.

سعد الحميدي

* إدارياً هو أمير الجنوب.. وشعرياً ـ وهذا الأهم ـ هو أمير الجهات الأربع.

محمد الرطيان

* أديب وفنان.. ذو إحساس مرهف.. وخلق عظيم.. وأعمال مشهودة.. وهذا ليس غريباً عليه فقد ورث من والده ـ رحمه الله ـ الشيء الكثير.

حمزه ابراهيم فوده

نقشٌ على أبواب دمشق

المجد من سرحة الفيحاء يُقتطفُ والحب من بردى الميمون يُرتشف
والجود أفضله ما كان صاحبه يُغري به وبفضل الضيف يعترف
ومن سوى بردى يُغري العطاش به ومن سوى جِلقٍ بالجود تتصف
هذا بسبع فروعٍ قد سقى كرماً وذي بأبوابها هشّت لمن دلفوا
دعت بنار القرى من ضلَّ موردها وأحرقت بلظاها كف من عسفوا
من سفرها قرأ التاريخ قصته ومن رُباها بُناة المجد قد هتفوا
خودٌ قد ائتزوت بالمجد زاهيةً وبالمكارم والأمجاد تلتحف
دمشق. يا بهجة الدنيا وفتنتها يا من لها ينتمي الاخلاص والشرف
مهد الحضارات إني شاعرٌ كلفٌ وهل يغرّد إلا الشاعر الكلف؟
غنيتُ مجدكِ صدّاحاً على وترٍ على نغيماته الأجداد قد عزفوا
ورتّلوا مثلما رتّلتُ أغنيةً تحكي مآثرهم فخراً بما نصفوا
جابوا الممالك تعزيزاً لدعوتهم وعن مناهجهم في الحق ما انحرفوا
فالعدلُ والعلمُ من فيحائهم نبعا ولم تزل منهما الأجيال تغترف
للصين قد وصلوا. للهند قد رحلوا للبحر قد نزلوا للغرب قد زحفوا
قلوبهم سبقت أسيافهم غدقاً فالحلمُ والعدلُ في ترحالهم هدف
صروحهم في بقاع الأرض شاهدةٌ وكم وكم لصروح البغي قد نسفوا
على دوارسها شادوا حضارتهم منائراً بهداها سار من وجفوا
علومهم لم تزل في كل مدرسة هدياً لمنْ جهلوا. نهجاً لمنْ عرفوا
جلفٌ غلاظٌ على أعدائهم صُبُرٌ وفي أحاسيسهم من فنّهم رَهَفُ
تراهمُ في الوغى عُرْياً فما لبسوا إلاّ الحديد وغير النقع ما ألفوا
وفي دمشق تراهم في منازلهم وقد تجلّت بها النعماء والترف
فكل بيتٍ به روضٌ يزيّنه كأنما الخلد للأبصار تنكشف
تضوعت منه أطيابٌ منوعةٌ ما استافها فتيةٌ إلا بها شُغفوا

والياسمين ثغورٌ في تبسمها   تناثرتْ درراً تغري فتلتقف
وفي الزوايا سما التاريخ يشمخ في   نجومه كعروس زانها الأنف
وفي الفناء لجينُ الماء مضطربٌ   في بركةٍ فوقها الأفياء ترتجف
تحيطها صورٌ شتى وقد رُصفت   فسيفساءً وفي الجدران ترتصف
تالفت ونبتْ حتى لتحسبها   طبائع الناس بالألوان تختلف
أو أنها نثرت في الأرض من قُزحٍ   ألوانه إن غشاها النور تأتلف
وفي الخدور ترى الابداع في نُسجٍ   يزهو بألوانها الايوان والغرف
الى دمشق بكل الفخر قد نُسبت   والشرقُ والغربُ (بالدامسقِ) يعترف
وفي الأرائك والأبواب قد حفرت   أحلى النقوش، وفي أخشابها الصدف
تقول إنّ الذي أهدى الجمال لها   وزاد فتنتها فنّاً لمحترف
فكلٌ بيت دمشقيٍ تطوف به   لمتحفٌ زينت أرجاءه التحف
هذي بيوتُك يا فيحاء من قدمٍ   بإسم الحضارة أردى حسنها التلف
غزا محاسنها (الباطون) معتدياً   وأفظع القتل ما بالعمد يقترف
سطا على غوطتيها قاتلاً بهما   غصناً فغصناً وما في قلبه رأف
والشام من رئتيها الريح ان عبرت   مذعورةً. بهما من رهبةٍ تقف
تنقيان القذى منها فتحسبها   نسائماً من جنان الخلد تزدلف
فكيف يطعن أهلوها حشاشتها   جهراً. وإن أسفوا، هل ينفع الأسف
إني لأسمع صوتاً عاتباً حنقاً   من قاسيون ومن أهليه ينكسف
يقول إني أرى في الشام أعمدة   من الدخان تغطيها وتكتنف
وكنتُ بالأمس ألقاها وقد سطعت   أصدٌ عنها الأذى حرصاً وأشترف
كحارسٍ شامخٍ والغوطتان له   من كل ناحيةٍ من هامه كتف
سلاحه حبُّها والعزم بسمتها   والزاد من إرْثِ ما أهدى به السلف
ومن جرى حبُ أهلِ الشام في دمه   يعيش لاَ وَهَناً يشكو ولا يَجِف
والشام مطمع أهل الأرض من قدمٍ   عزّت على كلِّ باغٍ غرّه الصلَف
أحبها الله فاختار الولاة لها   فدّعموا مجدها عدلاً وما جنفوا
ذادوا بكل ثمينٍ عن أصالتها   وما استكانوا الى جورٍ ولا ضعفوا
قد عطّروها بطيبٍ من دمائهمُ   وكم بآياتها هاموا وكم حلفوا
هاكُم جدوديَ يا فيحاء فاعتصمي   بمجدهم ولتحدّث عنهم الصحف
قد أنجبوا أسداً يحمي أصالتهم   من الخطوب فجل الأصل والخلف

علي سلمان بلال

في مربد الشعر

في مربد الشّعرِ رفّ الشعرُ وانطلقا
يضمّ في جانحيه الهمَّ والقلقا
وطافَ فوق عيون الوقت يمسحها
بالكحل حيناً وحيناً يسكبُ الفلقا
وعلّق البوحَ في جيد الصباح هوىً
وا لهف نفسي لجيدٍ بالهوى علقا
هربتُ من مقلتي أرتاحُ في ورقي
فصار قلبي لهاثاً يشعلُ الورقا
يا صاحب المربد المغناج شرفتُهُ
تأبّطت في المساء العاطر الأفقا
ورقرقته هوىً يا حسن ما فعلت
على النفوس نبيذاً يرأبُ المزقا
سكبتَ دنّك في ميناء قافيتي
فأمرعت رملتي والشاعر انفتقا
وتحتَ بردكَ مرّت ألف قافلةٍ
من الضياء بثوب ينشر العبقا
رش الخليل عليها بعض زفرتهِ
فانهرته شعاعاً يخضب الطرقا
رزقتُ باسمه أطيافي وباصرتي
وغابتي والنّدى والعشق والألقا
والشعر ذوبُ جناحين هوىً وأسىً
ويرتمي إنْ هما في الوثبة افترقا
يزنّرُ البحرَ من آلائه شيماً
تزيلُ عن صدره الأوجاعَ والرّهقا
والشعر يفقأ عين الليل منطلقاً
يصبُّ في شاهدات الرُّقَّدِ الرّمقا
هذي الفصول على صفصاف هيكله
تمضي وتزهر منه كلمّا نطقا
يا دار بوحك غيث الفجر يغسلني
فوق الوهاد فأحيا كيفما هرقا

الأقدمون مشوا في ظل طلعتها
وركبهم من رئات الظلمة انعتقا

تحلّقوا حول دفءِ الجمر واتّشحوا
فأُنعِشوا فرقاً واستتبعوا فرقاً

وكوّنت خلف حدّ الغيم متكئاً
ليرضع الغيم من شلالها غدقا

لهاثها جمرةٌ والريح قامتها
وفي مداميكها الدنيا زهت نسقا

تغفو على الدهر لا همٌّ ولا كَدَرٌ
ولا تخافُ المدى والبحر والغرقا

يا شهقة الخمر في أحناء داليتي
نادمت فيك جلال الكون والشفقا

هي الحروف كوجه الرأد مبدعةٌ
شمائل النور منها يوأد الغسقا

تعلّقت قامتي في طيفها ولهاً
فكللي بعقدٍ يثمنُ العنقا

هزرت بان هواها اشتهي رطباً
فأكرمت عاشقاً في طيفها علقا

يا عاصري كرمةً والعشق خمرها
والحرف من دنها في خاطري دفقا

يمرُّ فيها جنينُ الصبح مصطبحاً
فيرتدي قامةً تستنهضُ الشّرقا

تأبطتني أياديكم لداليةٍ
فأسكرتني بما أمسيت مغتبقا

ودثّرتني بجفن الشمس فانتشلت
مواجعي بضياءٍ فاض وانبثقا

رسمتُ جرحي على أعتاب ملهمتي
فزيّنت ضفتيه رهبةً وتقى

ولملمتني تضاريسُ الظلال صدى
نشدتُ فوق مداه السهد والأرقا

جمري ترمّدَ علّ الريح تنثرني
حتى أعود جنيناً يحضن الأفقا

* * *

اكرام قديح مكي

وحيدة

أراني وحيدة
بعينيّ يغفو الألم
ويقتل روحي السأم
وعمريَ أمسى
خريفاً يعرّي
جراح ربيعي
فلا بسمة تغسل الجرح
لا دمعة حب تؤاسي
ولا من حبيب
يناجي بقربي
يهدهد حبي
يعلل قلبي
ويمحو الندم

أراني وحيدة
بنفسي تلظت..
صنوف الجراح
ويهمد قلبي
كسير الجناح
فيا ويحه كم..
يتوق الى
مرابع ذاك الهوى المستباح
غدوت ولا فجر للعمر عندي
ولا رعشة..
لنسيم الصباح
وامسي بلا قطرة من رجاء
تمس لديّ
حنايا الفؤاد
وترعى الوداد
فليل حياتي اطل ولاح
وما الذكريات
سوى أمنيات
تئن بقلبي.. كعصف الرياح

أراني وحيدة
صديقي اليراع
بروحي يعيث الضياع
يعم الأسى والوهن
ونفسي تأبى الخداع
وتأبى حياة الشجن
وحولي الثعالب
تغدو.. تروغ
تحاول في البلوغ
تسدّ علي الطريق
عيونٌ شظاها بريق
تحيل نهاري ظلاما
وصمتي كلاما
فيغدو نعيمي شقاء
وعيشي عناء
وشمس حياتي..
ستشرق لكن
والهف قلبي..
بدون شعاع.

ولّى الصبا

وأشعر ان صباي
يلملم اطراف
أيامه الباقيه
ويمضي الربيع
ربيع شبابي
يكفكف أدمعه الدامية
ويمضي
بكل الذي فيه يمضي
ويقطف ما غرسته
بعينيّ أحلامي الزاهيه
ويزهو خيالي
تنمو به الفُ زهرة
فتذبل نادبة باكيه
وينساب عمريَ مني
كما الماء بين الأصابع
تسرب في لوعةٍ ضاريه
ويدوي صدىً في ضميري
لأحلى سنين
صباي الطروب
مررن كما البرق يومض
في ليلة عاتيه
ويسقط حلم
وراءه حلم وليد
ويقبل عام
ويتلوه عام جديد
ليملأ حلقي مراره
وأشباح عمريَ
تصفع يومي
وتدخل نومي
لتملأ حلقي مراره!

جاء الخريف

جاء الخريف
وتبعثرت اوراق عمري
في جنون
ماذا؟.. اتصفعني العيون
ماذا؟.. اتصدمني السنون
اثارها محفورة
في الوجه مني
في الجبين
وتئن روحي
في عذاب مستكين
هذي شعيرات
بلون الثلج
تعلن في تحد
انه جاء الخريف
ولّى الصبا
مني يد اليام قد سرقنه
وحطمت
عمري الذي قد كان
مزدهراً
بآمال وفيره
لم يبق مني
غير أوهام
تضيء
وتشبع النفس الكسيرة
وكرهت مرآتي

ونفسي
في صراعات مريره
ذهب الربيع
وجفّ زهر
كان في الماضي يضوع
ويملأ الدنيا
أريجٌ
عبر افاق منيره

طرحة العروس

شلال ماء هل أرى؟..
أم طرحة العروس
أم يا ترى؟.. لآلىء
تساقطت.. من عقدها النفيس
ام اكؤوس من فضة
تناثرت مياهها. مثل الحبب
أم ذوب روح تائه
حيران أضناه النصب
يحكي دموع العاشق الولهان
في فجر الرحيل
تضيء مثل الماس
تنساب على الخد الاسيل
كمنارة بيضاء تلمع في خيوط الشمس
تحضنها الجفون.
تسمو لها الاحداق
تغرق في تأملها المحاجر والعيون
ويداعب الاسماع ايقاع الخرير العذب
تحدوها القلوب
فتخالها تحنو جوى
وتخالها وجداً تذوب
شلال يا صرح الخيال
لأنت معجزة القدر
شلال أية قوة
قد ابدعت تلك الصور
تضفي على القلب السرور
وينتشي منه البصر
شلال يا وله الطبيعة
في عناق المستحيل
تجري فتحضنك الرياض
ويرتوي منك النخيل
وتروح تسألك الربى
مهلاً الى أين الرحيل
وتمر كالهمس الرقيق
كعاشق يخشى الرقيب
تنساب كالخطو الشرود
تراك تبحث عن حبيب؟
وتنام في حضن المروج
وعند كتف المنحنى
فتهدهد الغاب الشجيّ
بكل الحان المنى
وتتيه في البيداء
ترعى النجم
في الليل الحزين
كنزيف احزان اليتامى
او دموع البائسين
يا رحله لكنديا
تنفي عن الروح الشجون
في النفس منها لم يزل
سحرٌ وفيض من حنين

بحر.. وموج.. وزبد!..

بقلم:

فريال سالم مكارم

بزغت كشلالٍ من النور.. سفحت غيوم القمر.. استحمتْ في قوس قزح..

محاطة بحجاب شمس، ألقت بُردها على المرايا، لتزداد بريقاً ونمواً، أحالتني للصمت الدائم.. ليس سوى حزن ارتسم في عيني العسليتين الواسعتين..

انها مأساتي الأولى، التي حطّمتْ أعمدة نفسي المغطاة بلفحة غبار، جعلتني أنام كل ليلة على وسادة ممزقة..

كومة من الذكريات، استعدتها وأنا جالسة عند الغروب استمتع بمنظر البحر الهادىء حيناً.. والمائج حيناً آخر!..

منذ طفولتي، وأنا مولعة بالبحر قبل أن أستمتع برؤية شواطئه!..

كنت كدمية صغيرة موشّاة بسيول ضوء تجرف الحطام الذي عشّشتْ فيه خفافيش الظلام..

ورغم بيئتي المليئة بشقاء اليوم.. كدّ.. وتعب، من أجل لقمة العيش.. فالبحر لم يكن مظلماً أمدُّ فيه العنان لشقوقٍ بسقفي، لتكون مأوى للثعابين!.. بل فتحتْ نوافذي المغلقة.. ليدخل الهواء الى كياني المتعب.. فيحيله الى رونق وبهاء..

كنت أمرح وألعب.. ولكن ليس مثل صغار الحي.. بل كنتُ أقطف زهور البساتين.. أشتمّ الأريج من حدائق متنوعة.. وأرمق نجوماً كثيرة تحترق لتتساقط رماداً، يتكوّر في عيون الزمن، منسحقاً في منفاه الاخير.. وكنت أشقّ طريقي من خلال رمادها.. فقد ترعرعت في حياة واجهتني بسيوف التسلط.. إذ شعرت فيها أنني ريشة تائهة.. وأن هذا البحر الذي أمامي الآن، لا يتسع لمصابيح المسترسلة في عالم ضبابي.. تائهٍ في دوّامة الانكسارات!..

مازلت أذكر تلك الأيام، ونسيمات البحر تأرجح خصيلات شعري الأسود، وتداعب مشاعري.. حيث كنت أرى الألوان كلها الأساسية منها، والممزوجة..

وفي النهاية انتصرتُ على كل صراعاتي المعجزة، التي كانت تحيك حولي خيوطاً تنفث السم، لترميني في الجحيم..

كنتُ آنذاك نشيطة في تتبع المحاضرات على مقعدي الجامعي.. أجلس في الصفوف الامامية.. أتعامل مع زميلاتي وزملائي بلطف وود..

وكنت اراكَ خلف المنبر بقامتكَ المديدة، ومنكبيك العريضين وأنت تلقي محاضرتك متسائلاً:

ـ أين السلام، وكل يوم يذوب ألف جسد؟.. هناك قتلى .. ومجاعة.. لا حرب دائماً ، ولكن المحارب وحده يموت مكفناً بالورود.. فالأمل يعلن صيحته..

كنا جميعاً منصتين لمحاضرتك الممتعة وانت تقول:

ـ بأيدينا نكتب تاريخنا على جدران الزمن.. على غبار الصحارى.. على ضفاف الأودية..

ثم تردد على مسامعنا كلمة مجسدة بالانسانية إذ تقول:

ـ الانسان حتى في اعماق ذاته بئر عميق.. يمارس نفسه في أعماق الصمت.. وبصماته تبقى آثارها عالقة على الجدران لا تذوب.. لا تتلاشى كتلاشي البصمات على الثلج.. فمن لا يحارب العتمة حوله، يلتهمه انتظار الوقوف ليرميه الى كهوف الجلوس المُقعد.. ومن ثم الى النوم.. يسرق من عينيه بقايا الضوء.. ومن أعصابه آخر نبض حي.. ليشلحه الى صحراء قفراء!..

كانت كلماتكَ دافئة.. تعبر عن حنانٍ وتضحية، وتفانٍ في خدمة الانسانية!..

* * *

البحر يزداد هياجاً.. والسماء متلبدة.. يبدو أنها ستمطر!..

تسري في أطرافي قشعريرة مخيفة.. شعرتُ بمثلها وانا هناك.. في القاعة.. وكنت يومها تحاضرنا عن جمال الخالق.. والطبيعة.. والكون.. تتبصّر في المخلوقات.. وضربت مثالاً على جمال الله الذي وهبه للإنسان.. وكان مثلُكَ أنا.. إذ قُلت يومها مشيراً اليَّ من بين طلاب القاعة:

ـ هذا، وجه جميل، مستدير.. وعينان سبحان الله في خلقه.. وفمٌ مكتنز!..

وكنت تسترسلُ وكأنما تصف لوحة رسام متمكن من رسمه، حتى لفتَّ أنظار الجميع نحوي!..

كستْ الحمرة يومها وجنتي.. وتابعتَ محاضرتكَ بكل هدوء.. وعيناكَ السوداوان ترمقني بدفء غريب، أنضج تفاحة أحزاني.. وفي نهاية المحاضرة قلت:

ـ من لديه أسئلة؟

اقتربتُ منكَ حاملة كُتابي وسألتك..

وجاء ردُكَ عنوانا صغيراً يرشدني الى مقر اقامتكَ، أسلمته لي مبدياً رغبتكَ أن تشرح لي هناك دروسي التي لا أفهمها من منهاجي!..

ذهبت اليكَ في اليوم التالي.. وكنت أظن أن عنوانكَ يرشدني الى مكتب مليء بالاساتذة الجامعيين..

طَرقَتْ يدي جدران الفرح التي كانت كوترٍ يدنُ بلا عازف.. فتحتْ يدك البيضاء!.. دخلتُ مندهشة بما حولي.. منزل ذو حوضٍ واسع.. فسيح الممرات.. صالة مليئة بالثُريات الثمينة..

قدتني للطابق العلوي.. كان المكان مضمخاً بعطركَ الشهواني.. وستائر مخملية تتمايل على أنغام موسيقى كلاسيكية منبعثة من جهاز خفي..

غرف المنزل كثيرة.. مفروشة بالأسرة.. ولكنها خاوية..

جلست على سريرٍ ، وأمامي طاولة عليها أوراقكَ، وحقيبتكَ الجامعية.. بينما تسمّر كتابي بيدي.. فتحته لأبدأ أسئلتي حول الدرس، لكنّكَ تلمّستَ يديّ، ونزعت كتابي جانباً..

ـ سننهي كل شيء لاحقاً..

هذا ما قلته لي!!..

كنت ترتدي ثياب المنزل الأنيقة.. داعبتَ شعري بيد، والاخرى وضعتها على خاصرتي..

سمعت الريح تشتكي آهة في صدركَ.. خفت محاولة الابتعاد.. لكنكَ طوقت خصري بيديكَ هامساً:

ـ أحب فيك أنوثتك المتوقدة!..

انتابني الخوف اكثر.. وحينها، رسمتَ لي طوقاً من الثقة والأمان.. فسألتكَ:

ـ أين الإنسانية؟.. أهي سلاحكَ في الـ.. هل هي فقط خلف المنابر؟..

.. ونبرتْ شفتاك بكلمات التجاهل الممزوجة بحرارة الجسد!..

تكاد تلك الذكريات بأحداثها المتناقضة تقفز بي من موج البحر.. لتأخذني الى تيار الحنين.. حيث أينعت زهرتكَ البنفسجية.. فغرست في جسدي، ذكرى .. امتدت الى المستقبل..

وكنت تشتمَ عطر ثيابي.. وبتُّ أتنازع وإياكَ بين الموت والصدى.. مرتعدة الأوصال.. متآكلة الأنفاس..

في سرّي أقاوم صراع ذاتي.. أفجّر خلايا البكاء.. أقاوم مافي داخلي، واقاومك.. ولكن عبثاً.. كانت يداكَ تطاردني في كل صوب.. ونداؤكَ يرنّ في أذني:

ـ هيا!.. إني أبحث منذ فترة عمّن أفرغُ فيه كأس طاقة صبري..

حاولتُ التملّص والخلاص.. لكن كل الأبواب كانت موصدة في أعماق ذاتي..

أحضرتَ لي يومها فنجان قهوة، بعد ان تكالبت عليكَ مني المحن.. رشفتُ بيدين مرتجفتين.. ولسان صامت.. ليتحول صوتي بعده لوناً ذا رائحة.. فالمكان يدور بي.. وأصبحتُ كأكليل غارٍ حان جناه!..

كسرتَ أكفان يأسك.. وغفوتُ شمساً باهتة.. انسابت من بين تجاعيدها دروب رمادية وملونة.. وتناميت أنت على أعشاب صقيعي.. وعيناك تلتمعان ببريق النصر!..

* * *

ها قد سكن البحر.. وهدأت أمواجه.. وأيقظتني كلماتكَ حينما قلت:

ـ هيّا.. ابتعدي عن هذا المكان.. ستحضر زوجتي وأطفالي بعد قليل!..

كلماتكَ.. أطلقتها كما الرصاص القاتل!.. وحينها سقطتُ في زوبعة مشاعري..

خاطبتكَ:

ـ لماذا فجّرتَ هذا اللغم في داخلي على أول الجسر؟.. لماذا حركتَ في صوتي هزيم الرعد؟.. وسلبتَ اكليل الغار الذي توجت به؟..

لكنكَ قهقهت ساخراً.. تركتَ حدّ السيوف يهشّم كياني بينما تستمر في قهقهتكَ الفارغة!..

خرجتُ .. وبيدي كتابي الممزق.. تاركةً فنجان قهوةٍ، عليه بصمات من دمي..

تابعتني عيناكَ من خلف الزجاج في الطابق العلوي.. حيث كنتُ أمشي متعثرة الخطى.. فاقدة التوازن.. تلتهمني نظراتكَ العابثة.. الشامتة.. حتى خرجت من مدخل منزلكَ الطويل المشجّر..

ابتعدتُ .. ومازالتْ ضحكاتكَ تخرم أذنيّ، حتى أوصلتني قدمايَ بعد سير طويل الى الشاطىء.. فأستلقيتُ محاولة أن أستجمع بقاياي المبعثرة في غياب العابثين..

* * *

استفقتُ من شرودي، على مطرٍ.. ورذاذ موجٍ بلّلا ثيابي المتسخة.. وابتلعا كتابي الذي كان الى جانبي..

ولفّتني، دوّامةُ شرنقة النهاية. لبحرٍ.. وموجٍ.. وزبد!..

زوجة موظف

بقلم:
حسني الربداوي

الأزمة خانقة.. مرّ موسمان على الأرض مروراً سريعاً فظلّت الأرض عطشى ولم يأتِ الفرج!

كنت أخرج كل يم للبحث عن عمل.. وأعود كما خرجت.. وقوف.. انتظار خيبة!

كانت جارتنا تقول لزوجتي: أنتم عائلة كثيرة العدد تلتهم الأخضر واليابس فلماذا لا يبحث زوجُكِ عن وظيفة!

كنت أمقتف العمل الوظيفيُّ.. إنه القبرِ.. إنه خانقٌ مظلمٌ!

اعتدتُ الشمسَ والهواءَ والحريّةَ.. وعشق الأرض!

لماذا باء الموسمان السابقان بالفشل؟ أتراني لم أعتنِ بالأرض، أم ... أم أن عينَ جارتنا أصابتهما بمكروه

ـ قالت زوجتي لماذا لا تبحث عن وظيفة؟

ـ الوظيفة لا تكفي يا امرأة!

ولكنهاتسرُّ بعض الرمق..!

حاولت جاهداً إيجاد عمل وكلما طرقتُ باباً وجدتُه موصداً

مضي معظم الليل وأنا أحلم أتخيّل.. أتوهم (قفزت زوجتي من نومها ألديك ضيف! لا... عادت إلى النوم.. أدركْتُ بأنني كنت أحدّث نفسي بصوت عالٍ

ماذا تفعل حتياالآن؟

لا شيء

لماذا لا تنام؟

قلتُ لك ابحثْ عن وظيفة ولكنك مصرٌّ على الرفض

اسمعي يا امرأة.. وظيفة.. وظيفة..

أموت ألف مرّة.. ولا أعمل موظفاً ثم ألم تعلمي ياطالبة الوظيفة بأنني لا أحمل مؤهلات علمية؟

مؤهلات ماذا؟ لديك ذاكرة حافظة وقدرة على الاقناع.. وحديثك ممتع وتعرف الكتابة والقراءة.

هذا الذي ذكرتِ يرشحني لمنصب وزيرا!.. وضحكتُ.. هذا لا يكفي.. الشهادات العلمية هي التي تحدد من يصل للوظيفة.

ولكنّك أمين وصاحب مبدأ..!

هاتان قضيتان مختلفتان عن المؤهلات العلمية.. وهما ليستا ضروريتين للوظيفة ثمّ هل تذكرين ما حلّ بنا منذ سنوات خلت؟ وكيف مرضتُ وضاقت بنا السُبل!

ـ أذكر!

وأخيراً هطل المطرُ فكان الفرج.. إني لألمحُ موسماً جيداً في أفق هذا العام.. وأكاد أسمع همس الغيوم بأذن الأرض (سأعود أيتها الحبيبة)

ـ إنك تحلم كثيراً وتتوهم أكثر

ضحكت.. ثم ضحكت مفرّجاً عن كربي

ـ حين طلبتني من أهلي كانوا يقولون بزنك زكي ولبق ولمّاح.. ومستقبلك مشرق.

وماذا حدث؟

ـ ماتت أحلام!

أيةُ أحلام؟ وبم تحلمين؟

كنت أحلم.. بأن أصبح زوجة موظف!؟!

ذكريات الطفولة

حدقت الى المرآة تفحصت وجهي.. قرأت نفسي في كل الاتجاهات..

لقد تجاوزت الأربعين.. أربعون عاماً ماذا بقي من العمر؟ لا.... هناك الكثير «فعمر الشقي بقي».

حين كنت في المدينة مرّة لفتت نظري سيارة خمنّتُ انها امريكية الصنع مترفة عريضة.. طويلة وقفت فجأة ونزل منها شخص أنيق عليه مظاهر البذخ تفوح منه رائحة عطرٍ لم يسبقْ لي أن شممتُ مثلها..

دفعني احساسٌ غريب وفضول فطريّ لمعرفة الشخص.. انه يشبه محموداً الذي اعرفه.. (من أين تعرف مثل هؤلاء؟)

أعرف بأنني كنت في طفولتي كثير الشغب والعبث.. لقد ارتكبت حماقات طفولية جمّة وكان عمّي يضربني ويسجنني في حظيرة الدواب..

ـ أستاذ محمود!..

لم يأبه.. أتخونني الذاكرة؟ (لقد واجهت خيانات كثيرة حتى الاحباط ولكن ذاكرتي ظلت شابّة.. وربما كانت وبالاً عليّ أحياناً كثيرة!) محمود وعلي وأنا أشعلنا ناراً تكفي لحرقِ مدينةٍ بأسرها وشوينا على النار حباتٍ من الكوسا والباذنجان سرقناها من الحقل المجاور.. وكادت النار أن تقضي على محصول أبي العبد.

ـ دكتور محمود!.. كانت خطوات الرجل الذي أظنّه محموداً واثقةً فيها

ايقاعٌ لا أعرفه بخطوات محمود الصغير الذي صفعني بقوة حين انزلت له سروال بذته الرياضية الجديدة على مرأىً من نسوةٍ كنَّ يسرْنَ في أزقة القرية..

محمود بك!.. (لابدَّ من أن الحجر الذي سقط على رأسي في حفلة عرس قد ألحق بدماغي ضرراً فادحاً مع أنني اعتقدت بأني عوفيتُ تماماً.. حتى إن أميّ أكدت لي شفائي.. وأخرجتني من عزلتي..)

أسرعتُ في السير وراء الرجل سبقته وقفت أمامه.. توقف.. ألست محمود أسعد؟ ابتسم بسخرية قلّص عضلات وجهه وبدت عليه صرامة مخيفة. خلت لحظتها أنني في سجن متعدد الأبواب كثير الاقبية يشبه قرية نائية مغلقة.. وربّما كان هذا الرجل آمراً لهذا المكان.. لكنني مصرٌّ على أن محمود سيخلصني من هذا المكان..

نعم أذكر المرأة التي أرتني شعر لحيتي الأبيض..

ولكن الحجر الذي أصاب رأسي لم يعد لعيناً فقد توالت على رأسي أحجار عديدة.. فزادت جمجمتي صلابة.

ابتسم الرجلُ أمسك بزراعي وبقوةٍ قادني الى السيارة أجلسني بجانبه أدار المحرك.. ورغم التحضر الذي تنعم به أجواء السيارة فقد خلت مخلوقاتٍ خرافيةً تحاول تقاسمي..

لم انتبه الى المسافة التي قطعتها السيارة كما أنني لم ألحظ الأمكنة التي عبرتها السيارة الامريكية المختالة..

أوقف السيارة صمتت فيروز.. نزل من السيارة وحين أمرني بالنزول.. قال: أهذا بيتك؟

لا أذكر كيف تعانقنا.. انتهينا الى غرفة بسيطة.. استلقى علي اريكة من الاسفنج تمزق قماشها وتآكلت أطرافها نظرت في المرآة فلم أجد ما وجدته بالأمس..

لقد عدت طفلاً إنه محمود..!

مفارقات

الشمس تؤذن بولادة يوم جديد، رقم جديدا!.. وفجأة يرتفع صوت المؤذن من المسجد

إنا لله وإنا... انتقلت الى رحمة الله..

كانت زوجتي تُعدّ الشاي لأتناول فطوري وأذهب الى عملي..

مسكينة أم ابراهيم لقد هاجمتها كل أمراض العالم فكابرت وصبرت فترة.. ولكن الموت انتصر عليها كعادته..

قالت زوجتي «الموت لا يعرف أحداً»

قلت: الموت حقيقة لا تحتمل أكثر من معناها

*

قالت زوجتي مرة: لقد تأذينا أمسِ من رائحة المبيد الحشريّ أخشى أن يحصل لنا مكروه..

ضحكت بحذر وأنا أصطنع النكتة: العلاج بسيط! المؤذّنُ حاضر ومكبّر الصوت

يُسْمعُ الجميع..!

*

عبر دروب القرية الضيّقة والملتوية تتزاحم الشاحنات الصغيرة تدعو المواطنين الي بيع النحاس والبلاستيك والخبز والاحلام البالية!

تتشابك أصوات المنادين عبر مكبرات الصوت العاملة على البطاريات الجافة.

قال ابني الصغير سأبيع حذائي!قالت لي أمي حين كنت طفلاً: القدمان الحافيتان يكتسبان مناعة ضدّ الآلام والالتهابات والتسلّخ..»

بحث صغيري عن حذائه فلم يجده.. صرخ مستنكراً وبكى من أخذ لي حذائي؟!..

*

كنت عائداً قبيل الغروب من القرية المجاورة بعد عمل متعب.. راعني صوتٌ مرعب صاخب يخترق المدى وقرقعةٌ تضجُّ في عظام الرأس، تأكدت وأنا أجرجر خطواتي بأن الصوت قادم من قريتي

«السكون عدوّ الحضارة».. صراخٌ وضجيج وترويجٌ متحضّر لفحولة أبناء (المحترمين جداً)

مسكينٌ جاسم!.. إنه يعاني من نوبات صَرَعٍ متكررةٍ وخطيرة

قال لي مرة: لقد بدأ الصرع معي بمناسبة أول حفل زفاف نقلته مكبّرات الصوت في قريتنا لمطربين من الدرجة (الممتازة).

وصلت داري بعد أن عبرت مركز الصواعق الصوتية.. أحسست وأنا أخلع ثيابي بطرق شديد يوجع كل أجزاءجمجمتي

– والد العريس يرحب بشيخ عشيرة..

أعمام العريس ازدادوا شرفاً بحضور السيد.. أفندي.. أخوال العريسِ شرّفهم حضور فلان آغا..

أخذت أقراصا مسكّنة لا أذكر عددها راودت النوم عن نفسه فتمنَّعَ كمفناجٍ أتقنت اللعبة في بلدان العالم الرابع.. وما بعد!

أشرقت الشمس وأنا أتقلب.. بحثاً عن النوم الذي ملّني حين صمتت أبواق الحفل، كان مؤذن الجامع يقول:

للمرة المئة.. إنا لله وإنا إليه راجعون..

من قبل صلاة الفجر وأنا أذيعُ عن موت جاسم العلي ولكن الإرسال كان ضعيفاً ولم يحضر الى صلاة الصبح احد.. فصليتُ وحدي..

يا أهل الخير:

بمناسبة موت جاسم ندعوكم الي التبرع لشراء مكبرات صوت قوية ذات إرسال منافس.. واذكّركم بفكرة شراء برّادٍ لحفظ جثث الموتى الذين يرحلون في ظروفٍ احتفالية قاهرة..

*

أم ابراهيم لم تعد.. وابني نسي بأنه لايملك حذاءً والمبيد الحشريّ لم يؤذنا..

وتخلص جاسم من داء الصرع إلى الأبد...

الموهبة



بقلم:
هيفاء رزق

ما حاز عليه من شهادات حسن السلوك، وما تزين به من لاليء النجاح الباهر في العمل، وسيرة الأخلاق الحسنة التي حلي بها، كلها رغم معانيها السامية لم تجد نفعا في ترقيته وتطويره ظل ثابتا في مكانه رغم تحركه ونشاطه مدة عشرين عاما، كان الحزن يشتد عليه فيمسك رأسه من الألم حين يذكر الجهود المضنية التي بذلها ومازال يبذلها من أجل التحرك واجتياز خريطته الضيقة، يتألم بشدة لان هذه الجهود باءت جميعها بالفشل، والآن يقف وجها لوجه مع نفسه

ـ كنت أعمل كثيراً لكن الاخفاق يلاحقني لا أدري لماذا؟

ـ أحمق تظن نفسك ذكيا ماهرا، وأنت غبي لا علم لك بالمعاصرة، والسير مع معطيات التطور وما يفرضه التهذيب والسلوك.

ـ ما هذا لم أكن ذكيا ولا مهذبا والشهادات الكثيرة التي أقرت بذلك هل كانت خائبة أيضاً.

ـ صوتك المنخفض حياؤك الجم بضاعة قديمة.

ـ قديمة؟

ـ طباعك ذات لون كلاسيكي ورداء الشهامة الأبيض لم يعد مثيراً أفهمت؟

ـ الرداء الابيض الشهامة لم تعد مثيرة ما هذا؟

ـ أيها الغبي ألوانك الخارجية، ليست صارخة والجميع تبهرهم الالوان، وأنت ذو لون واحد.

ـ ياللخيبة لم اعد مقنعا ولا مقبولا، وبحاجة الى رداء عصري مثير ومواهبي الكثيرة الا تستطيع تحريكي وتطويري؟

ـ احذر من المواهب، المواهب تقود الى التأخر والتقهقر وتعرقل سير صاحبها في كثير من الأحيان لأن عالم المواهب في مجتمعنا يفتقر للمواهب فلا يستطيع التمييز بين المواهب الحقيقية وغيرها من الشوائب فقد يمحو منها وقد يرميها أو يرديها إياك من المواهب يا صديقي فهي شربلية.

ـ المواهب التي أباهي بها أمام الآخرين مشكلتي الكبرى لانها توجع رأسي بنقدها وتدخلها فتوقعني في أحرج المواقف نقدها لاذع كالنار ففي المنزل تقتحم علي مجلس الترفيه والاستراحة أمام شاشة التلفزيون متناولة الطرب العصري بالنقد بل تصرخ بي كما يصرخ مطربو هذه الأيام موهبتي حمقاء تغضب فوراً لذلك سجنتها داخل نفسي خوفا من هربها الى أي مكان.

بالأمس أردت التبرع لأحد الاصدقاء بدمي فرافقتني الى المستشفى يومها زاد غضبها واحتد لسانها فتناولت موظفي المستشفى والأطباء واتهمت المستشفى بأنها مؤسسة رأسمالية لهذا قررت أتحمل نزقها وهي تتحرك في نفس وذهني وإن كانت تسبب لي الأر والسهاد ووجع الدماغ.

ـ يا لك من مسكين يعاني الأر الدائم، دعها تفارقك فتعيش في مؤس علمية أو ثقافية علها تسهم في الإبد والابتكار.

ـ حاولت لكنها رفضت لانها وجد نفسها غريبة في عالمنا الابداعي ال يحارب الإبداع والابتكار.

ـ اسجنها اذا شئت ولا تجعل تتدخل في عوالمنا ومرافقنا.

ـ فعلت، كادت تقتل نفسه واتهمتني بقلة الضمير.

ـ الضمير وما دخله.

ـ إنه مشكلة كبيرة جدا كالموهبة ل سبب لي متاعب كثيرة، خلال عملي ف سلك التدريس، جعلني أخاف تقالي التدريس المتداولة مصراً على مباد اعتبرت تقليدية جدا في زمن البلاد والسلخ، والتقزيم.

عملية التدريس أرغمتني عل العيش في عالم غريب جدا العطاء له لو الشح المقيت والنظام تعشعش فيـ الفوضى والضمير لا ضمير.

ـ أيها الصديق المسكين أنصحك بترك الموهبة والضمير.

ـ مالك متسمراً هكذا تفكر أتقضي نهارك شارد ذاهلاً كأنك في عالم آخر.

ـ من زوجتي؟

ـ أجل لقد انتهى طعام الغداء، والأولاد ينتظرونك.

ـ دعيني أكمل حديثي.

ـ مع من تتحدث؟

ـ مع نفسي

ـ دعنا من هذيانك انه لا ينفع

ـ انني لا أهذي بل اخترع أفكارا ذكية تصحح أوضاعي

ـ قل أوضاع البيت وأوضاع الأولاد البيت أضحى مسلوب العافية، يداوي كدماته بالأدعية والابتهالات والاولاد حائرون يبحثون عن تفسير مقنع لتعاسة العمر.

ـ تعاسة العمر هذا ما عنيته بضرورة البحث عن فكرة ذكية تلغي التعاسة.

ـ ابحث أيها الذكي عن جارنا أبو سعيد وافهم منه كيف ألغى التعاسة.

ـ جارنا أبو سعيد

ـ نعم جارنا أبو سعيد الديناميكي النشيط، لايفتش عن افكار، الموهبة لا تؤرقه والضمير لا يوبخه ومع ذلك اكتشف طريق الحياة ووفر أسباب الربح والثراء ياله من مخترع عبقري لألوان صارخة براقة تسلط الضوء على طريق النجاح.

ـ ألوان أبو سعيد البراقة وفنونه الصاخبة وألاعيبه الماهرة، وعصاه السحرية أبو سعيد عبقري العصر لا يملك عبقرية.

ـ لكنه أثبت نجاحه ومهارته

ـ دعي هذا الكلام أصبحت لا أستطيع التمييز بين الخطأ والصواب أبدا انني في غربة ومأساة

ـ مأساتك غريبة ما معنى ذلك.

ـ غربتي عن المجتمع.

ـ آه لقد جاءنا هاتف من المجتمع هذا الذي تتحدث عنه هاتف

ـ هاتف من المجتمع أيتها الغبية المجتمع أفراد كثر!

ـ بالضبط أفراد كثر هم الذين صرخوا بصوت واحد نريد أبا نظام سنكلمه بعد نصف ساعة ها هو جرس الهاتف يرن من جديد المجتمع يتحدث أيها الموهوب المسكون بالضمير والذكاء.

ـ المجتمع عاتب وغاضب بسبب وخزاتك المؤلمة ونقداتك اللاذعة وإداناتك الموجعة لم تدع مؤسسة ولا مستشفي ولا دائرة ثقافية نحن نعرف مشكلتك الضمير والذكاء دعك منهما اخلع هذين الحلمين المزعجين ونحن نعفو عنك.

ـ أأنا الوحيد الذين يحمل هذين العبئين

- لقد سبق أن بحثنا عن كل فرد يملكها بقيت أنا مصدر القلق

- ماذا فعلتم بهذه المواهب والضمائر.

- وضعنا رقابة كافية عليها فهي لا تستطيع الحراك من مكانها.

- واذا لم أفعل ما تريدون

- نضعك معها في السجن لا بد من سجنك اذا لم توافق.

- ما هذا؟ يعني هناك فريقان المجتمع من جهة والضمائر والمواهب من جهة اخرى، يالخيبة هذا المجتمع الذي كبل عقله واحتجز ضميره.

- دعنا من فلسفتك ولتختر بين الامرين.

- لن أتخلى عن موهبتي وضميري حقا أن الموهبة مزعجة لكنها توقظ وتنبه.

- اذن هيا الى السجن

- وماذا تستفيدون ستظل موهبتي معي وكذلك ضميري ولا بد ان تعود موهبتي الى نشاطها ونقدها.

- هذا تحد كبير للمجتمع.

- إياكم والصراخ فأنا لن أدخل السجن ولن أترك موهبتي وضميري بل سأجعلكم تفرجون عن المواهب والضمائر.

- أعدت ثانية للتحدي؟

- نعم لانني أتحدث بعقلي وأنتم تتحدثون بغبائكم، أنتم تصرخون وتتوعدون وأنا أفكر بهدوء صاحب الموهبة والضمير اعتقلتم الضمائر والمواهب خوفا وجبنا فسيطرت عليكم الفوضى ونهب بعضكم بعضا فها هو الكبير يأكل الصغير واذا بقيتم على هذا الامر انقلبت البشرية الى وحش كاسر.

- دعنا من مواعظك وارشاداتك.

- ليست هي مواعظ وإرشادات بل هي الحقيقة الناصعة فأنا انظر اليكم وأنتم بلا موهبة ولا ضمير وكأنني أرى أجساداً دون أرواح أرى أعينكم البلهاء وأرواحكم الشريرة ولهجتكم الحمقاء.

- دعك من الفلسفة منذ قليل كنت تشكو من إزعاج الموهبة والضمير.

- حقيقة أرى بعضكم استطال وكبر فابتلع الاخرين الذين خسروا العافية الى جانب خسارة الضمائر والمواهب فيالهم من بائسين اذا لم يسترجعوا ضمائرهم ومواهبهم.

- يا لك من ماكر لقد استطعت إقناع ضعفائنا فهاهم يتبعونك ويسيرون معك الى معتقل الضمائر والمواهب لاسترجاع ما نهب منهم لكننا لكم بالمرصاد.

- لن تستطيعوا أن تفعلوا شيئا ما دمتم على هذا الغباء وقلة الضمير لقد أصبحت مقتنعا بأن النجاح المرتقب سيكون من نصيبي ونصيب أصدقائي لاننا سنعمل دائبين بذكاء الموهبة ومحاسبة الضمير يمكن للدرب أن يطول يمكن التعرض للمصاعب لكن لا بد من الوصول الى الهدف المرتقب.

لمن تنضج الثمار

بقلم:

حمدي عبد الرحمن البصيري

فحول جامحة ترقص، تدبك، تغني، تتفرس صدور العذارى، يغنون فرحين، وأنا زجاج يتحطم..

ـ من يجلس على العرش؟

ـ من يحلم بامتلاكي؟

ـ من ينقذ ثماري ويسقي شفاهي العطشى؟

أشدُّ صدري، أبرزه، أهزّ أردافي دون جدوى. زجاج يتكسر وأنا أعدُّ بصمت تسللاتهم، مثنى، مثنى. جليد يتبخر في الربع الخالي، ورأسي يتخيل تأوهاتهم، ومتعة وصالهم.

أحترق، أرتجف، أشبك يداً بيد، أشدهما أعتصر مقهورة. ضيفة شرف فخرية تكتفي بابتسامة بلهاء جامدة، طيلة الفرح، صورة مزرية للتهكم والسخرية.

فكرت.. لست قبيحة لماذا اذاً؟!.. ربما كبرت، أجل كبرتِ كثيراً يا سلمى، وهؤلاء لا يودون إلاّ الفراخ. دجاجة هرمة أنا، لن يقربها ديك أبداً، الديكة تشتهي الفراخ التي فقست تواً من بيوضها.. سعاد فرخة، لذا فهي عروس الآن.

حين نقرت بيضتي، وبدأت أتهيأ للفقس قالت أمي:

ـسلمى ابنتي، صرت عروساً، يكفي مدرسة، البيت سترة لك حتى يأتي النصيب.

ـ عروس ، أجل أنا بت عروساً يا زينب، أمي قالت ذلك يا سامية؟

ـ بتنا عرائس حقيقية، لن نلعب بالدمى، لن نلعب بالتراب، سنصرف وقتنا للتزين والذهاب للأعراس مثلما تفعل النساء.

عروس، أخرجتني أول مرة، من عالم

البيضة الصغير للعالم الأكبر.

- لم أعد طفلة.

كان ردي الحازم على كل من يعاملني كطفلة، نموي فجأة، وبروز مفاتني، وميلي للجنس الآخر، أشياء كلها تنفي طفولتي، وكيف أكون طفلة، وأمي لا تنفك توقظ أنوثتي بعبارتها صباح مساء:

- صرت عروساً يا سلمى.

أسأل أمي:

- هل أنا جميلة؟

- قمر يا ابنتي

مرة أخرى، أسألها بعدما غيّرت تسريحة شعري:

- هكذا أبدو أجمل، أليس كذلك؟ أو مهلاً قبل أن تجيبي، ماذا لو قصصت غرتي ألاّ يكون أجمل، أو قصصت شعري بأكمله طبقات، و...

ودائماً، وفي كل الحالات، كنت في عيني أمي جميلة، هه (القرد بعين أمه غزال). تناديني زينب مساءً، نتمشى، نود لو نعلم العالم كله أنّا نتمشى، عرائس تتبختر، يتبعنا خالد على مقربة، تحمر وجنتاي، وأنا ألحظه يرمي جسدي نظرات فاضحة، تقول زينب:

- أخي يحبك.

تزداد وجنتاي احمراراً.. بات اليوم رجلاً مهما في دمشق.. مرةً كنت أمشي وحيدة، فرخة تتباهى بأنوثتها اللافتة، لحق بي خالد، يهزّ عرفه حولي، وتحت عريشة العنب حيث جلست، وبعد مصارحة، اعترف بحبه لي، وبحت اعجابي به، قال متصابياً:

- سلمى، لنلعب لعبة العريس والعروس؟!

استجابة مذهلة للحظة طالما ترقبتها، لا أعرف كيف تقافز صدري الناهد؟ وكيف تلونت وجنتاي؟ وكيف كانت أنوثتي تغلي؟ ما أذكره أني ابتسمت مطأطئة رأسي.

موسم الحب ابتدأ، طوقني بذراعيه، أخفض رأسه إليّ، رفعت رأسي إليه، تراقصت شفتاه، ارتجفت شفتاي، اقترب فمه، اقترب فمي، انفتحا قليلاً معاً.

ابتدأ الموسم؟ لا في تلك اللحظة تبخر كل شيء، الأنفاس المتلاحقة، المشاعر المتأججة، الشفاه المتألقة انزوت جانباً ذابلة، الصدر الناهد برد متجمداً، الفرخة صارت صوصاً والديك سراباً.

وحده صوت أبي يطبق والكون علينا، صفعات، لكمات، شتائم للعروس والعريس. خالد (يولول) هارباً، وأنا أتلوى بين يديه.

كفكفت سلمى دمعها، لئلا يلحظها أحد، وعادت ترسم بثقل ابتسامتها الزائفة، مازالوا فرحين، يغنون، ويسرقون بعضهم بعضاً، تأملتهم، لا أحد يكترث بها، فعادت تكمل لنفسها الحكاية:

قبعت في سريري حبيسة غرفتي، أنتظر العريس، طال انتظاري، تمليت الرجال من نافذتي هذا تسحر في عيناه، وذاك يشدني قوامه، وثالث تغريني أملاكه.

- من يأتي؟

- من يتذوق فاكهتي؟

تعود عيناي لسجنها خائبة، جدران أربع صامتة، وسقف ثقيل يكتم أنفاسي، وباب صغير موصد غالباً لئلا تضبط أحلامي.

- ألف مرة، قلت لك ولها ما في طلعة إلاّ بإذن مني. مفهوم؟!

غالباً كان جوابه على التماسات أمي لي بالخروج من محيط (حوش) الدار. لزمت نافذتي أحلم بفارس ينقذني، تارةً أتخيله آتياً على حصان أبيض، وتارة بلا حصان.

ابتسمت، لوحت، غمزت، طيرت قبلات هوائية..

- من يطرق بابي؟

- صدري الناهد، من يقطف ثماره؟

- من يجلس على العرش؟

- من يسقي شفاهاً عطشى؟

لا أحد.. المهر الغالي، وجمالي المحدود لا يدفعان أحداً للمغامرة. خالد الذي حاول يوماً، دفع ثمن مغامرته الفاشلة.

- سامحك الله يا أبي جنيت عليّ.

أتأمل أبي، يدبك، بدا وسط الحلقة ضعيفاً هزيلاً بجانب الشباب، صحيح أنه أفرج عني، لكنه تأخر كثيراً، سامحه الله.

خرجت الليلة، في أول مناسبة، بحثاً عن الأجوبة التي لم أجدها في غرفتي، خرجت للفرح لأكتشف، أن الفرح ليس لي، بل للفراخ أما أنا فقد نسيني الزمن في زنزانة أبي.

لم تمل عيناي طرح الأسئلة، على الفحول الجامحة، رغم اليأس لم أمل شدّ صدري وهزّ أردافي كلّما تنقلت في الفرح من جانب لآخر.

- سامحك الله يا أبي، ثمان وعشرون سنة وأمامها بقية عمري قتلتها بأعراف، وتقاليد بالية.

ضيفة شرف فخرية، صورة مزرية للتهكم طيلة عمري.

- عمتي سلمى، عمتي سلمى.

- رامي حبيبي

أحتضنه، ابن أخي، يتطلع للفرح بدهشة، وفضول، أتأمل دهشته، أقبله أود لو أمتص وجنتيه البيضاوين كقطعتي جبن.. أحلم، أتخيله فارس أحلامي، أقبله بعنف، يتألم رامي، فيتنبه حلمي متلاشياً. تقع عيني على أبي، يبدو عادياً جداً.

- سامحك الله.

رامي يهتف به:

- (جدو، جدو) يلّوح له أبي باسماً من الطرف المقابل.

رامي حصتي يدفعونه إليّ «تسلي به أيتها العانس؟!» هكذا أتخيلهم يقولون وهم يأوون لفراشهم.. أبي يحتضن أمي، وأخي يحتضن زوجته، وأنا أحتضن رامي، وإن لم يكن موجوداً فالوسادة؟؟

أمي تنظر إليّ، وتتألم كلما قبلت رامي بعنف، تعرف أني أحلم، أتخيل، لكنها لا تتجرأ على لومي، تتملاني بصمت، أطأطىء رأسي، ثم أرفعه متحدية بسماجة فظّة، تنهزم أمي، تلاحقها عيناي معاتبة:

- طال انتظاري يا أمي، أين العريس؟ العريس الذي سجنتموني من أجله لِمَ لمْ يأت؟؟

أرحمها قليلاً، أتوجه لأبي، لا يأبه يدبك، ويغني، أتوجه للجميع:

- يا ناس: أبي لم يعد يريد مهراً، وأنا لا أريده على حصان أبيض.

لا أحد يقرأ صرخات عيوني إلاّ أمي المهزومة أمامي، أتوجه للسماء:

- يارب، لمن خلقت ثماري؟ أرشدني، دُلني أرجوك، هل أموت هكذا وحيدة باردة؟.

تغص عيناي بالدمع، أكاد أنفجر بكاءً، تسرع أمي إليه تربت على ظهري

تحدثني هامسة:

ـ الصبر، الصبر، الزواج قسمة ونصيب يا ابنتي.

ثمانية وعشرون عاماً، وتقول الصبر، مزيد من هذا العلقم الذي أضنى انتظاري، أتجلد ماسحة دمعتي، تهتف أعماقي بأمي:

ـ مفاتني تذبل، صدري يتهدل، نيراني تخبو، لا أريد أن أبرد، البرود قاتل، لا أريد البقاء عانساً يا أمي، لا يود الشجر أن تذبل فاكهته على الأغصان لا يود بقاءها حتى الخريف، الخريف يا أمي أخشى أنه قادم قريباً.

تشدّ أمي يدها على ظهري وتقبع صامتة، لا تدعو ربها لي الآن، لكني أسمعها كل ليلة تصلي لأجلي.

ليتني لم أبرح غرفتي، أمقت كل شيء، الفرح، وهذه العروس التي تصغرني بعشر سنين:

ـ سعاد، أتمنى لك الموت، ولكل الفراخ، وكل الفحول، لكم جميعاً، لكل العالم. أقذف شتائمي هذه، وأنا أتقدم من العروس مهنئة، نسوة حارتي خلفي الآن، يقارنّ بيني وبينها، أعانقها، أتلو طقوس المباركة، أعود لمكاني، تختفي الابتسامات الساخرة، لكني أحس بها في كل وجه أنثوي يقع عليه بصري. أم العروس تقترب مني تقول:

ـ (عقبى) لك يا سلمى.

تندُّ على وجهي ابتسامة صفراء، لا يبدو ياجارتي، أحس جروحي المفتقة ، تبعثر بقايا روحي المزقة، أتذكر:

ـ سلمى عاقلة.

دائماً تقول عني أمي.. قلت لأم العروس رشأ:

ـ خلقت ككل النساء، لي مالهن ولهن مالي، فلم لا يبعث الله: مالهن لي؟ لماذا؟؟

صمتت تستوعب أحجيتي ثم قالت:

ـ توكلي على الله يا سلمى، الله كريم.

توكلت للمرة الألف، أردفت:

ـ أنت بنت طيبة، وتستحقين كل خير.

أفكر بأن أعود طفلة، تتهيأ للفقس، لأنتقم من كل هؤلاء.

وأنا أسير بمحاذاة أمي، عائدتين من الفرح، أفكر بالكتابة للسيدة مريم محررة طلبات الزواج في مجلة التعارف، سأكتب لها:

«عزيزتي مريم أنا عذراء في الثامنة والعشرين، متوسطة الجمال والثقافة، أبحث عن زوج، أرجو مساعدتي».

لكني حين وصلت غرفتي، وجدت نفسي أكتب برقية عاجلة:

«السادة الرجال: أريد عريساً، قبل أن أنفجر».

مزقت الورقة، واستلقيت على الفراش، تعلقت عيناي بالسقف، اخترقته عيناي، وابتسامة بلهاء تملأ وجهي معلنة بدء حلم يقظة جديد.

رأيته آتيا من بعيد، على حصان أبيض. شابٌ وسيم، جمع أشلاء الورقة، وركب حروفها.

ـ إليّ، إليّ.

محلقاً على جواده الطائر، يحطّ على نافذتي.

أهفو إليه، يهفو إليّ، أطوقه، يطوقني، تنفرج شفتاي، تتلاحق أنفاسي، أعتصره بقوة.. موسم الحب ابتدأ.. لا، أستيقظ لا شيء، لا شيء، سوى الوسادة أحتضن.